فى التنوير الإسلامى (١١)

تأملات فى التفسير الحضارى للقرآن الكريم

دكتور سيد دسوقى



عنوان الكتاب: تأملات فى التفسير الحضارى للقرآن الكريم
اسم المؤلف: د. سيد دسوقى حسن
تاريخ النشر: مارس ١٩٩٨

رقم الإيداع: ١٩٧٢ /١٩٩٨ .
الترقيم الدولى: I . S . B . N 977 - 14 - 0689 - 2

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١
فاكس: ٣٣٠٢٩٦ / ٠١١
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة .
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢
فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥ /٠٢
ص.ب: ٩٦ الفجالة
ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢
فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ /٠٢
ص.ب: ٢٠ امبابة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم المستشار طارق البشرى

(١)

ترددت كثيرا فى أن أكتب هذه المقدمة ، لما وفر لدى من شعور غالب بالهيبة والإشفاق على نفسى . وأخى القوى الأمين الدكتور سيد دسوقى ، أكرمنى بأن عرض علىّ هذه الاستضافة ، أى أن أكون ضيفًا على كتابه بهذه المقدمة ، وهى دعوة كريم شككت فى استحقاقى لها .

الكتاب أولا يتعلق بتفسير لآى من القرآن الكريم ، والقرآن نزل على النبى المصطفى خاتم الرسل وأطهر الخلق وأحكمهم ، والمعصوم فيما يقتدى به من أقواله وأفعاله ، نزل عليه بقول (**انا سنلقى عليك قولا ثقيلاً**) فإذا كان القول ثقيلا على أقوى الخلق ، فكيف به علينا مما أسماهم القرآن ذاته (**وخلق الانسان ضعيفا**) ، (**وعلم أن فيكم ضعفا**) فلم أهب فقط من تفسير القرآن ، إنما هبت أن أقترب من كتاب يفسر بعض آياته ، ووددت ألا أمسك القلم وأن أفر فرارا .

والكتاب ليس آخرا ، هو لأخى سيد دسوقى ، الفطن الورع ، وأنى أحبه لأن الله سبحانه وتعالى حبب إلىّ من أرى أنهم خير منى وأحسن ، دعانى إلى كتابه بموجب تواضعه وأوابته ومراجعته

النفس ، وخشيت أن تكون استجابتى بموجب غفلتى عن أمر نفسى فى هذا المجال . ولكنى خشيت أيضا أن أتفلت من قبول هذه المنة ، وقطعت ترددى بترجيح الأصعب والأبعد عن هوى نفسى .

أذكر ذلك ليعرف القارئ أننى ضيف هنا ، ووجودى وجود سماح ، وأنى أعرف من آداب الضيافة ، أن مجلس الضيف على نصف المقعد متهيأ للانصراف ، وأن يختار مقعده من المكان المسموح بما يجعل بصره يترامى إلى خارج الدار لا إلى داخلها .

(٢)

فى تعقيب سابق لى على بعض ما كتبه (سيد دسوقى) قلت أنك تقرأه ، فلا تخرج فقط من قراءته وأنت أوفر معلومات ولا أكثر فهمًا بالنسبة للموضوع الذى تكلم عنه ، إنما تخرج من قراءته وقد صرت أكثر ذكاءً مما كنت ، لأنه تكون جدّت لديك قدرة أدق على تصنيف الظواهر وترتيبها بما يجعلك أفهم فى معالجة وقائع الحياة ، وبما يجعلك صاحب ميزان أوزن وصاحب معيار أفرز للنافع من الضار .

وهذا الكتاب الذى بين يدى القارئ الآن ، أرجو أن يخرج منه وهو أصقل إيمانًا وأرطب نفسًا ، وأجمع لبحرى منطق العقل وإيمان القلب ، أى يخرج منه بنفس قرآنية ، يسرى القرآن بمعانيه فيها مسرى الدم فى العروق ، وتصير جوارح الإنسان كما لو صارت أسماعًا وأفهامًا لحديث القرآن ، ثم نتعامل مع واقع الحياة بهذه النفس . وشرط أن نفعل ذلك هو أن نعى الدرس الذى تعلمه

الشاعر محمد إقبال من أبيه ، عندما كان ينصحه بأن يقرأ القرآن وكأن القرآن يبلغ إليه فى ساعة تلاوته تلك . وهى نصيحة تشبه ما قاله بعض السلف ، أن إذا أردت أن تُحدِّث الله سبحانه فادعو وصلى له ، وإذا أردت أن يُحدِّثَك الله جل شأنه فاقرأ من القرآن . وهذا أخى سيد دسوقى يمارس هذا الأمر ، وينقل درسه العملى إلينا فى كتابه هذا .

إنه عرض لأمثلة من التفاسير الحديثة للقرآن الكريم ، وعرض بكلمات سريعة لاسلوب كل منها ، ومنها التفسير البيانى ، والتفسير الجهادى ، والتفسير الوعظى ، والتفسير الصوفى ، ثم توجه هو نحو ما أسماه «التفسير الحضارى» لأن أسس الحضارة هى ضالة د . سيد دسوقى ففتح المصحف ليتسمع حديث القرآن إلينا فى هذا المجال ، وأسس الحضارة عنده هى ميزان القيم ومرجحات السلوك البشرى ، أنصت د . سيد سوقى ونقل إلينا مارأى أنه سمعه ، وذلك بأوجز بيان وأخصر تعبير . فجاء كتابه كبيرا ذا صفحات قليلة .

(٣)

تكلم الكتاب عن «القيمة» و «الميزان» يفتش عنهما ويستخرج الدلالة عنهما من قصص القرآن الكريم ، ولم يهتم الكتاب بتحقيق واقع القصة المحكية ، ولم ير ضرورة فى أن يرجح من التفاسير ما يظنه أوقع واضبط فى تحديد زمان وقوع الحدث المروى ومكانه وأشخاصه التاريخيين ، مثل ما فعل كثير من المفسرين من قبل ،

وصرح الكتاب أحيانًا أن ليس هذا الأمر مما يستحسن أن يخوض فيه ، ولكن د . سيد دسوقى أحاط موقفه هذا بنظرين هامين ، أولهما أنه يفرق فيما يروى القرآن الكريم بين الأمثلة والقصص ، والأمثلة تذكر للتوضيح . بينما القصص فهى من وقائع السابقين ومن الأحداث الحاصلة ، وثانى النظرين أنه دائم التذكير لقارئه ، بأن عدم اهتمامه بتحقيق وقائع القصص القرآنى وتاريخ حدوثها ، هو أمر مردود إلى وجه التفسير والتحليل الذى اختار الوقوف عنده ، دون أن يجرح ذلك اعتقاده بحقيقة الأحداث المروية وتاريخيتها .

والحق أن د . سيد دسوقى بهذين التحفظين ، يضع سدا منيعا بينه وبين من يحاولون تجريد القصص القرآنى من واقعيته التاريخية كأحداث جرت فى زمان ومكان وكانت هذه النقطة من أحداث المعارك الفكرية التى اشتعل أوارها بين العشرينات والأربعينات فى هذا القرن ، مع «الشعر الجاهلى» لطه حسين إلى رسالة «الفن القصصى فى القرآن» لمحمد أحمد خلف الله . وأن غالب القصص القرآنى قصص أنبياء وصالحين ، والتشكيك فى وقائعه تشكيك فى أصل قيام النبوة على الأرض ، فضلا عن التشكيك فى الدلالة الإخبارية للقرآن الكريم .

ولكن الفارق جلى بين هذا الصنيع وبين قصر التفسير للقصة القرآنية على استخلاص الدلالة منها ، ونحن نعرف أن أحداث الزمان ووقائعه ، كثيرة كثرة رمال الصحراء وقطرات ماء البحر ، ولكن القصة تروى لا لكونها حدثت فقط ، وإنما لاستخلاص

معانيها ودلالاتها ، وأن اختيار الحدث واختيار الجانب الذى يروى منه وذكره فى سياقه المحيط ، إن ذلك هو ما به يبدو وجه الدلالة التى يروى الحدث من أجل الاعتبار بها . وهذا ما ركز عليه الكتاب الذى بين أيدينا ، استخلاص الدلالة المتعلق بـ «القيمة والميزان» وتبين الدرس الذى يستفاد للتوجه البشرى .

والكتاب فصيح فى موقعه مستقر على صراطه ، يستغرق فى بيان الدلالة دون أن يصير الحدث رمزا ، ودون أن تصير القصة محض مثل يضرب . ويستخرج أعمق ما تفيده فى هداية الإنسان مع التزامه بضوابط التفسير الجلىّ لغة وأسلوبًا ومنطقًا . فكان صاحب ميزان أراه دقيقًا ، وأراه جامعا لدقة الفهم العقلى وسخاء الهداية الإيمانية .

(٤)

استطرد إلى نقطة قد يستدعيها سياق الحديث السابق ، وهى تتعلق بالمعيار الفاصل فى فهمنا لمعانى الوقائع الإسلامية الواردة فى القرآن والسنة ، المعيار الفاصل فى ذلك بين ماتسعه النصوص وما لا تسعه ، فمثلا قصة شرح صدر الرسول صلى الله عليه وسلم فى صباه وغسله وختم قلبه عليه السلام ، هل كان شق الصدر وختم القلب واقعًا ماديًا ملموسًا أم كان حدثًا معنويًا ونفسانيا ، وقصة الإسراء والمعراج ، هل كانت بالجسد مع الروح أم كانت بالروح فقط ، وقد يختلف المختلفون فى تحقيق الروايات وفى تأويل معانى الأحاديث ، قد يختلفون بين مرجح لهذا الوجه وبين مرجح عليه ، فأما عامة الناس ففيهم من يجد كفايته فى الجانب

المعنوى من القصة ، وفيهم من لا يراه حقيقا بالاعتبار بغير اقترانه بالجانب المحسوس ، وأما خاصة الناس ، ففيهم من لا يجاوز الجانب المعنوى الرمزى لأنه يستبعد الخوارق ، وفيهم من لا يقف عند الجانب المعنوى لأنه لا يصدق بغير المحسوس .

وقد وقفت طويلا عند النظر بين هؤلاء وهؤلاء ، بعامتهم وخاصتهم . وانتهيت إلى ما اطمأن إليه قلبي وصدّقه عقلى ، إلى أننا نحن مسلمون لأننا نصدق بكتاب الله العزيز وبسنة نبيه المصطفى . وقد صدقنا بعقولنا بواجب الوجود تبارك وتعالى وسلمنا بربوبيته سبحانه . وما من عقيدة سماوية أو غير سماوية ، مؤمنة بالغيب أو منكرة له ، روحية أو مادية ، ما من عقيدة من أى من ذلكم إلا وهى تبدأ سياقها العقلى والمنطقى بعدد من المسلمات ، ولعل لفظ العقيدة نشأ من هذا المعنى ، ليجمل مجموع المسلمات التى انعقدت فى نفس المرء وعقله ، ومنها بدأت تنجدل أصول تفكيره وسلوكه وموازين هدايته وحكمه على الأمور .

ومن كل ذلك صدقنا بكتاب الله وتحقق لدينا بالدليل العقلى المستفاد من التواتر ، وصدقنا الصحيح من سنة رسول الله وتحققت لدينا بالدليل العقلى المستفاد من علم مصطلح الحديث . ثم تحققنا من دلالة أى من ذلك بالمعانى المستفادة من نصوص كتاب الله وسنة رسوله .

(٥)

بهذا المنهج الذى آمنا وسلمنا به وصدقنا ، به يجرى بيننا الترجيح فى تحقيق الروايات وتأويل النصوص ، وقد يختلف

المختلفون فى باب التقوية أو الإضعاف ، وفى باب الراجحية والمرجوحية ، وأن وقائع الحال تسع هذا الخلاف ، شريطة بقائه داخل الوعاء الإيمانى المحدد بالمسلمات العقيدية الثابتة . ومن يضعف حديث «شرح الصدر» يتعين ألا يكون مبنى إضعافه أنه يستبعد الحدوث الواقعى للفعل . ومن يؤكد على الاسراء والمعراج بالروح وحدها يتعين ألا يكون مبنى تأكيده استبعاد حدوث الفعل من الناحية الواقعية ، ويتعين ذلك حتى يبقى خلاف المختلفين فى إطار النظر الإسلامى . ونحن نبقى فى إطار النظر الإسلامى ما بقينا مراعين لأمرين فى هذا المجال .

● **الأمر الأول:** أن نتبع منهج أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، بلغه نبأ إسراء رسول الله ومعراجه ، فعلق على الفور أنه إن كان قال فقد صدق ، ثم يشرح طريقته فى التفكير قائلا انه صدّق الرسول عليه الصلاة والسلام فى كونه نبى الله ينقل عن السماء ، فكيف لايصدقه فى خبر إسراء ومعراج ، صدقه فى الأخطر فكيف لايصدقه فى الأهون . وهكذا يتعين أن نكون عندما نطمئن للسند الصحيح لخبر من أخبار الإسلام ووقائعه ، مما ورد بالقرآن الكريم أو عن نبينا المصطفى . ولاحرج على مجتهد عند تأويل نص ولاعند تحقيق حديث يتعلق بأخبار عن أمر من أمور الخوارق ، لاحرج عليه مادام هو نفسه سابق التسليم بإمكان الحدوث الواقعى للأمر وسابق التصديق بقدرة الله سبحانه فيما لانحيط به علما ولاتدركه عقولنا ، لأن كل ذلك فرع من أصل التسليم الأول ببلاغ رسالة الإسلام من الغيب .

● **الأمر الثانى** : أنه سواء بالنسبة لنصوص الأخبار عن وقائع الإسلام أو بالنسبة لنصوص الأحكام ، ورد أى من ذلك فى القرآن أو فى سنة رسول الله ، فإن الناس تختلف فى فهم النصوص ، فيما يسعه النص من وجوه التأويل والتفسير ، ولكل من المختلفين أن يتمسك برأيه وينكر رأى غيره ، ولا إثم فى ترجيح ولا فى إنكار لأى من وجوه القول مما يحتمله النص ويسعه من وجوه الدلالات ، ولكن كل ذلك بواجب اعتقادى أساسى وهو ألا يكون إيمان المجتهد بالنص مشروط لديه بقصره على وجه من وجوه التأويل دون غيره ، ولا مشروطا بصرفه من وجه من وجوه التأويل يراه المجتهد وجها مستبعدًا بذاته . إننا إذا لم نلتزم بهذا الواجب الاعتقادى نكون قد شرطنا على النص ، شرطنا على إسلامنا واعتقادنا ، أى نكون شرطنا على الله سبحانه .

والأمر هنا لايتعلق باجتهاد وإنما بانتماء وعقيدة ، والأمر فى مجال الانتماء هو أمر تسليم فى الاساس ، وهو فى مجال العقيدة أمر مسلمات . وإن من يشرط على النص لايخضع للنص وإنما يتحكم فى النص ، إنه لاينصاع للنص ، ولكنه يخضع النص لإرادته وفكره ، إنه لايتبين حكم النص ومفاده ، ولكنه يستنطق النص الحكم الذى يراه هو .

اطمأن قلبى وتطامن عقلى إلى هذا الأسلوب ، وتصالحت نفسى مع نفسى عليه بغير تقبض ، وعرف عقلى حدوده وعرف قلبى شواطئه واستراحا معا على هذه الأعراف . وعندما أتيح لى من بعد قراءة كتاب فضيلة العالم الجليل الشيخ محمد الصادق

عرجون عن «محمد رسول الله » وجدته عندما يعرض لوقائع السيرة النبوية ، يعرض من معانيها ما تدركه العقول ومالا تدركه بحسبان ذلك مما يسعه الخبر من الدلالة ، ثم يرجح المعنى الأبعد عن مدارك الجوارح ، وفهمت أنه رحمه الله يريد أن يدرب قارئه على رحابة اشتمال الخبر على مايحتمل من المعانى ، ثم يدربه على التسليم والتصديق ، وما أحوجنا لهذا التدريب فى عصرنا هذا . وكل ذلك أتذكره وأنا أقرأ لأخى سيد دسوقى فى كتابه هذا ، لأنه وهو يعمل عقله الذكى فى تفهم الآيات ، لا ينفك أبدا عن التذكير بالتسليم والتصديق ، مصداق قول الله سبحانه وتعالى (**فاسجد واقترب**) .

(٦)

ومع كل ما يقال عن وجوب التسليم والتصديق فى نصوص الدين وأخبار القرآن ووقائع النبوة ، مع كل ذلك يتعين التعقيب والجزم بأن دينا سماويا أو غير سماوى ، لم تثبت وقائعه ثبوتا يقينيا لاظن فيه بمثل ما كان فى الإسلام . ولا أعمل العقل فى دين من الأديان بمثل ما أعمل فى الإسلام . وما من دين اشترط لثبوت وقائعه اشد مناهج الإثبات وأدق أساليب تحقيق الوقائع والنصوص بمثل ما حدث فى الإسلام .

إننى قاض يعمل بالقضاء من بضع وأربعين سنة ، وصناعتى تحقيق الوقائع إثباتا ونفيا وإثبات التصرفات والافعال وإنزال حكم القانون فى ضوء من هذا التحقيق ، وقد قرأت فى التاريخ

ومارست التأريخ من بضع وثلاثين سنة ، وعرفت كيف يتثبت المؤرخ من وقائعه ويستجمع الأحداث ، ومن مقارنة مناهج تحقيق الوقائع والتصرفات والأفعال فى مجال القضاء والحقوق ، بمناهج هذا التحقيق فى التاريخ والسياسة ، يتبين أن تلك المناهج فى القضاء والحقوق ادق وأصعب بما لايقاس عنها فى التاريخ والسياسة ، لأن القاضى فيما يفعل إنما ينتهى إلى قرار بتجريد شخص من حياته أو من زوجه أو من ماله أو من عمله أو غير ذلك ، بينما المؤرخ يحلل وقائع ويدرسها وينتهى إلى رأى قد تقف إزاءه آراء معارضة .

أكاد أقول أن ما شرط فى علوم القرآن والحديث للتثبت من وجود النص هو أكثر دقة وآكد فى التيقن مما يشرطه القاضى عند إثباته للواقعة المطروحة عليه ، وان شاهدين ليكفيانه متى كانا عدلين ليتيقن من شخص قاتل أو سارق أو من وقوع زواج أو من انبرام دين ، بما يفضى إليه أى من ذلك من إعدام القاتل أو ثبوت النسب أو إفقار مدين ، فى حين اننا نحتاج إلى ماهو اكبر من ذلك للتثبت من النص الشرعى .

أكاد أقول أننى كقاضى ، وبوسائل التحقيق القضائى للوقائع التى تفضى إلى حكم على شخص فى حياته أو فى حريته أو فى ماله وملكه أو فى زواجه ونسبه وولده ، بهذه الوسائل أستطيع أن أقضى من باب أولى بثبوت القرآن الكريم ثبوتا قطعيا ، لأنه ثابت بالتواتر ، والتواتر هو انتقال الخبر أو النص من جمع لايتفق على كذب إلى جمع مثله ، وهكذا تكون كل حلقات نقل الخبر أو

النص حتى يصل إلى المتلقى الأخير . وهذا الأسلوب أشد كثيرا من شهود الدعاوى ومن خبرات ذوى الخبرة كنظر طبيب واحد أو مضاهاة خبير خطوط . ومن جهة أخرى فإننا كمؤرخين إذا التزمنا بمناهج علماء مصطلح الحديث الشريف فى تحقيقهم الأحاديث ، إذا التزمناها فى تطبيقها على وقائع التاريخ ، فلن يبقى لنا من التاريخ المكتوب والمروى إلا أقل القليل ، وإذا التزمنا التواتر فلن يبقى من وقائع التاريخ عشر معشارها ، لن يبقى مثلا من وقائع القرن العشرين إلا الأحداث التى من نوع تواريخ قيام الحروب وموت القاده وإعلان نشأة الدول .

أكاد أتجاسر بالقول بأن الله سبحانه وتعالى أنعم علينا نحن المسلمين بوقائع الفتنة الكبرى على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ووجه كونها نعمة أن عثمان هو من جمع المسلمين على مصحف واحد ، وهو نفسه الذى قام عليه من المسلمين من أفضت قومتهم إلى قتله ، فكان الخلاف بين هؤلاء وهؤلاء وقتها يبلغ من الجسامة حد قتل أمير المؤمنين وبقى الخلاف حلقات بعد ذلك حسبما هو معروف ومشتهر ، وتوافر لدينا بهذا القيام عنفا وسعة وشمولا واستمرارا ، بين مسلمين من جيل الصحابة وحفظة القرآن الكريم ، توافر لدينا ما نستطيع به القول باستحالة اتفاق على كذب فى أى شأن من شئون الحياة ، بله أن يكون هذا الشأن هو نص كلام الله تبارك وتعالى الوارد فى المصحف بدءاً بسورة الفاتحة وانتهاء بسورة الناس . فكانت الفتنة الكبرى مما يدعم قطعية ثبوت نص كتاب انزل من الغيب ، ومنه نتجت أمة الإسلام كلها .

(٧)

لو أعملنا مناهج الإثبات القضائى القديمة أو الحديثة ، الجنائية أو المدنية ، لثبت بها القرآن بأفصح وأقطع مما تثبت به الحقائق الواقعية الأخرى المعاصرة أو غير المعاصرة ، مما تقوم به الحقيقة القضائية ذات الحجية التامة . وبرؤية العيان للكافة ، مسلمين وغير مسلمين يثبت وجود الكعبة وقبر الرسول ، وبالتواتر غير المنقطع على مدى خمسة عشر قرنا يثبت استمرار بقائهما ، وكل ذلك أسانيد معنوية ومادية محسوسة على حقيقة الدعوة الإسلامية ، وهى تقوم بدلائل يقبلها ويعملها المنهج الوضعى والعقلى الصرف ، وكل ذلك يوفر للحقائق الإسلامية الأساسية مالم يتوفر مثيل له لأى من الأديان الأخرى السماوية وغير السماوية ، بل أكاد أقول أنه لم يتوفر لأى من وقائع التاريخ البشرى قبل البعثة المحمدية .

(٨)

ونحن بوصفنا مسلمين ، لدينا وحدنا أقدم وثيقة ثبتت ثبوتا يقينيا بالأدلة والبراهين الواقعية والعقلية ، لدينا وحدنا أقدم وثيقة من هذا النوع تؤكد على وجود الانبياء والرسل السابقين وكتبهم ، وتؤكد وجود موسى والتوراه واليهودية ، ووجود المسيح والإنجيل والمسيحية ، وكلاهما ثابت لدينا واقعا وعقلا بأكثر مما هما ثابتان واقعا وعقلا لدى معتنقيهما اليوم .

أردت من كل ذلك أن أوضح أننى عندما أشرت إلى مايتعين

أن يتحلّى به المؤمن من تسليم وتصديق ومن أن يبدأ سعيه الفكرى بالمسلمات الإيمانية ، لم أكن بهذا أشير إلى الابتعاد عن مناهج التحقيق العقلى والواقعى ، ولم أكن أتهرب من إعمال هذه المناهج ، لأننا نحن المسلمين اكثر من اعملها من ذوى الأديان والعقائد ، بل هى فى الصميم من ركائز الممارسة الإيمانية لدينا . ولكننى كنت أقصد الإشارة إلى أنه ما من منهج عقلى أعمله الإنسان ويعمله إلا ويعتمد على مجموعة أصلية من المسلمات الفلسفية تشكل لديه المنطلق الفكرى ونقطة البدء ، حتى العلمانى وحتى الوضعى وحتى اللا أدرى لدى كل منهم من فلسفته مجموعة من المسلمات الأساسية عن أصل المعرفة ، بها يبدأ ومنها يجدل كل مواقفه الفكرية .

وأردت أن أوضح عددا من الأسس المنهجية العقلية والفلسفية الإيمانية التى تصورت أن أخى سيد دسوقى بدأ منها وأعملها فى تفسيره هذا لآيات من الذكر الحكيم .

والقرآن الكريم ، يستخرج منه الأصوليون مبادئ علم أصول الفقه بدقتها العقلية الصارمة ، ويستخرج منه المفسرون ما يستخرجون من سخاء المعارف الروحية . ونحن أمة خرجت من هذا الكتاب ، ولاتزال تنهل منه . والله سبحانه أسأل أن يجعل أمته هذه أمة قرآنية ، وأن يبقيها على القرآن .

الحمد لله

طارق البشرى

مقدمة

وراء هذه اللمحات قصتان ، قصة قريبة وقصة بعيدة ، أما القريبة فهى أننى وصلت فى أوائل صيف ١٩٩٣م إلى مفترق طرق لا أدرى أيها أسلك ، شعرت بأن وقتى تستنزفه مجموعة من النشاطات الغير هادفة بحيث أراه يهدر أمام عينى وبين يدى وكأننى لا أملك من أمره شيئا .

حكومتنا الطيبة جاءتها نصائح ملزمة أن تصنع لنا قانونا موحدا للنقابات . . فأصبحنا وأمسينا فى معارك مع أنفسنا حول القانون ، وتعالى صياحنا وخاض بعضنا فى أحاديث عن البعض الآخر وشعرت منذ اللحظة الأولى أنه قانون صنع خصيصا لاستهلاك الطاقة وصرفها بعيدا عن أى قضية بنائية إلى قضايا الذود عن حياتنا النقابية التى كانت قد استقرت فى هياكلها القانونية عشرات السنين . شعرت بأخدود يحفر ورجال يلقون فى الأخدود ونيران تضطرم وصياح يعلو وضجيج يسود . . . و فوق الأخدود شهود . . ألوانهم بيضاء وعيونهم زرقاء ونصائحهم سوداء . . يمكرون بنا جميعا . . حكاما ومحكومين . . ويودون أن تسود البغضاء ويسود الصراع بين طوائف الأمة جميعا . . وكأننا لم نفقه قصة سورة البروج ، وحسبناها فحسب إحدى الحكايات القديمة . . تلك التى يتحدث فيها التاريخ عن جبابرة حفروا فى الأرض أخدودا وأضرموا فيه النيران . . ولم ننتبه إلى أنواع أخرى من

الأخاديد الاجتماعية والوطنية والقومية يشعلها الشيطان وأعوانه حولنا ويدفعوننا إليها بإعلام خبيث يستخدم علوم النفس والاجتماع فى حثنا على هذا الاندفاع .

هذا على كل حال فهم حضارى لقصة الأخدود فى سورة البروج وهو فى صلب ما نحن بصدده فى هذا البحث القرآنى إن شاء الله .

أعود فأقول إن بدايات صيف ١٩٩٣ م شهدت من نفسى ترددا وحيرة إزاء أى الطرق نسلك وفى أى عمل ننطلق . . ولم يكن ذلك نتيجة ما ذكرت آنفا فحسب ، وإنما كان ذلك تراكما لشعور ازداد مع الأيام أن القضايا الإصلاحية ليست بالبساطة التى نتوهمها ، وأن المتعرضين للعمل الإصلاحى أنفسهم يحملون كما من التخلف ورثوه عن المجتمع الذى يبغون إصلاحه ، ومن ثم فهم يحتاجون إلى إصلاح أنفسهم وضبط توجهاتهم حتى ترتفع فعالية العمليات الإصلاحية التى أراها فى كثير من الأحيان متدنية للغاية .

وبدا لى أن غيبة صغرى عن الأحداث قد آن أوانها ، ورأيتنى أعزم عليها فى منتصف الصيف ، وما أن جاء أغسطس حتى كنت قد ذهبت إلى أقصى الأرض فى كاليفورنيا حيث يعيش معظم أبنائى هذه الأيام .

وبدأت رحلة قصيرة فى ربوع جنات القرآن الكريم ، وليس معى إلا التفسير المختصر للشيخ مخلوف والتفسير الإنجليزى لمحمد أسد .

وكانت استفادتى من تفسير أسد بالغة حيث أنه لا يورد رأيه فحسب وإنما يكتب حواشى يختصر فيها آراء القدماء أجمعين .. لقد أغنانى ذلك عن أن أحمل فوق ظهرى مكتبة بأكملها فى تفاسير القرآن الكريم .

وما أن مرت قرابة الأسبوعين حتى سمعت من إخوانى أننى فررت إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وتركت من ورائى إخوة يصطلون بحرارة أحداث متلاحقة . وقفزت إلى مخيلتى سورة يونس عليه السلام ، وكتبت إلى صديق لى أقول :

يعلم الله أننى لم أخرج مغاضبا .. فأنا شديد الحساسية وشديد الخوف من بطن الحوت ولقد ابتلانى ربى فدخلت فى بطون حيتان كثيرة ، ولكنى قد وهبت نعمة الخروج السريع من هذه البطون .. ما أن أشعر بدفئها وما أن أشم رائحتها حتى أحتشد وأقذف بنفسى تاركا ورائى بعض متاع الحياة الدنيا وأحيانا كل متاع الحياة الدنيا .

وفى هذا الصيف يجادلنى أخ من علمائنا الأفذاذ هاجر بصفة نهائية للولايات المتحدة الأمريكية فى الجدوى الحضارية لأى جهد نبذله فى بلادنا ولقد اسودت نظارته لدرجة أنه لا يرى فى بلادنا أى خير .. وأنا أجادله أن فى مصر خير كثير وليست الأمور كما يراها ولكنه ألح فى الجدال حتى سألته وماذا فعلت أنت ؟ .. قال : وليت هاربا ... قلت : إلى بطن الحوت ... فضحك وافترقنا . وفى الصباح اتصل بى هاتفيا وقال : أقلقنى ماذكرت فظللت أتفكر فى أمرى ... وإذا بى فى بطن الحوت ... نعم أنا فى بطن الحوت ... فماذا أفعل ؟ قلت : هذا أمر مشجع أن

تعترف أمام نفسك وأمام إخوتك أنك فى بطن الحوت . . أما ماذا تفعل فهذه قصة أخرى يعينك عليها الله ويعينك عليها إخوانك .

أعود فأقول إننى أمام حيرة الصيف . . . آويت إلى عزلة قصيرة أتلمس فيها الهدى فى قرآن ربى باحثا عن طريق قاصد فى دنياى القصيرة . . . فوجدت زادا عظيما وخيرا كثيرا والله المستعان .

أما القصة الثانية فتدور أحداثها فى أوائل الخمسينات ربما عام ١٩٥٢ - وكنت قد بدأت أقرأ تفاسير مختلفة للقرآن الكريم مما كان بين أيدينا من التفاسير الرائجة بين يدى أهلينا من الأزهريين وأذكر أننى عندما قرأت هذه الآيات من سورة «ص» .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾

صدق الله العظيم .

أقول عندما قرأت هذه الآيات وقرأت تفسيرا لها فى بعض كتب التفاسير أصابنى غم شديد . لقد حكى التفسير أن سيدنا داوود بينما كان ينظر من شرفة قصره أبصر امرأة جميلة فوقعت فى قلبه وسأل عنها فقيل أنها زوجة لأحد جنود الجيش ، فأمر قائد الجيش أن يضع هذا الجندى فى مكان يسهل قتله . . وقد كان وتزوج داود المرأة .

وهى قصة توراتية تضيف أن داود قد زنى بالمرأة فى غياب زوجها . . .

وروى سعيد بن المسيب عن الإمام على أنه هدد بمضاعفة حد القذف لمن يسمعه يتكلم عن قصة الزنا .

أقول عندما قرأت هذا التفسير أصابنى غم شديد . . أهكذا يكون خلق الأنبياء .

أغلب الظن أن اليهود اخترعوا على أنبيائهم حكايات عجيبة توحى لهم أن مثل هذه الجرائم أمر عادى ، فإذا كان نبى مرسل يفعل هذا فلا تثريب على رجل عادى أن يقتل عمدا ويزنى من أجل سرقة امرأة من زوجها . والقرآن يحدثنا عن قتلهم انبياءهم وعن افترائهم عليهم . . فكيف غاب عن مفسرين كبار أن ينتبهوا لهذا .

ولم تمض على هذه الحيرة أيام حتى وصلنى العدد الشهرى لمجلة «المسلمون» التى كانت تصدر فى القاهرة ويرأس تحريرها أستاذنا الدكتور «سعيد رمضان» وكان الأستاذ «حسن الهضيبى» المرشد

العام للإخوان المسلمين يكتب افتتاحية هذه المجلة بسلسلة جميلة تحت عنوان «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم» وتسمرت عيناى على افتتاحية العدد وإذا بأستاذنا القاضى العظيم الأستاذ الهضيبى يفسر نفس الآيات التى حيرنى تفسيرها السابق ويعطيها أبعادا حضارية لا تتعلق بأى قصة توراتية وإنما يستخلص منها دروسا تتعلق بالقاضى والتقاضى . . وبينما أقرأ الآيات يومها وتفسيرها الجديد شعرت وكأنما يوحى إلى . . القاضى لا يقضى وهو فزع ، والقاضى لابد وأن يستمع لكل الأطراف قبل أن ينطق بالحكم ، وفى صومعتى الصيفية أعدت قراءة الآيات فرأيت مزيدا من الدروس نجملها فى سبعة دروس :

١ - إن محراب القضاء محراب مقدس ، وهو محراب ينبغى عزله عن المؤثرات الجانبية التى ربما تحيط بالقضاة فتؤثر عليهم وتفزعهم بضغوطها فيخافون . . ولا جدال أن القاضى الخائف لا يستطيع أن يستجمع شتات نفسه وعقله ويركز على ما بين يديه من الحقائق المجردة . . إن الإعلام كثيرا ما يتسور محراب القضاء فيفزع القضاة . . بل إننا أحيانا نستمع لمسئولين من كبار القوم يعلقون على قضايا بعينها تعليقات من شأنها أن تفزع القضاة . . إن تسور محراب القضاء جريمة يجب أن نقف ضدها وأن نطور من أساليب الحماية ما يمنع هذا التسور .

ولى صديق قاض . . كل يوم أزداد له حبا واحتراما ، وهو شريح هذا الزمان . كثيرا ما نلتقى وربما تكون بين يديه قضية عامة فلا نحاول أن نقترب من موضوع القضية فضلا عن القضية ، ومرة

حاول صديق - عن قصد أو غير قصد - أن يتسور المحراب فى قضية ما . . فما كان من صديقنا القاضى العظيم إلا أن نبهه فى أدب جم ولكن فى حزم قاطع ألا يقرب من هذا الأمر .

٢ - القاضى لا يقضى حتى يستمع إلى جميع المتخاصمين .

٣ - القاضى ينبغى أن يحكم بالحق ، والحق هنا هو الشريعة الحقة وما استخرجه الفقهاء منها من قوانين . إن أكبر مصدر للسوء فى المجتمع هو أن يتقاضى الناس بغير الحق . . أى بقوانين جائرة وضعتها قوى ظالمة أو قوى جاهلة لتحقق بها مصلحة قريبة لها .

وانظر إن شئت إلى هذا الكم المتراكم من القوانين فى مصر منذ عام ١٩٥٢م والذى يحكم حياة الناس ويكاد يخنقهم مما يضطرهم إلى تجاوزه رغم أنوفهم .

٤ - القاضى ينبغى ألا يشطط وهو يستخدم هذا الحق ، فليست هناك قوانين منطبقة تماما على حالة بعينها ، وإنما يحتاج الأمر إلى تفسير وتقريب ومماثلة وتشبيه . . وكل ذلك يستوجب مهارة من القاضى تحول بينه وبين الشطط . . فالشطط ربما يكون فى تطبيق قانون لا يناسب الحالة التى بين يدى القاضى ، والشطط يمكن أن يكون فى حجم العقاب أو فى حجم التعويضات التى يقضى بها القاضى ، أو أى صورة من صور الشطط وفى كل الأحوال ينبغى على القاضى أن ينتبه قدر استطاعته إلى احتمالات الشطط وأنه قد ينزلق إليها بسهولة ويسر وبنية طيبة ، وأحسب أن القاضى فى صغره يحتاج إلى عملية تدريب عقلية كيف يقلل الشطط قدر الإمكان إن لم يستطع أن يمحوه تماما .

٥ - لاتكتفى العملية القضائية بإصدار حكم قاصد وإنما ينبغى أن تهدى المتخاصمين سواء الصراط ، فكم من أحكام تصدر وتحول الظروف الاجتماعية أو النفسية أو الاقتصادية من تنفيذها ، وربما يحتاج الأمر إلى منظومة جديدة فى النظام القضائى مهمتها التوجيه والهداية فى تنفيذ الأحكام .

٦ - ينبغى على القاضى أن ينزع نفسه من ظروفه الخاصة ولا يسقطها على ما بين يديه من حالات ، فربما كان القاضى سيئ الحظ فى بيته مع زوجة أو أولاد . . فإذا جاءته قضية شبيهة سيطرت عليه ظروفه الخاصة وحالت بينه وبين الموضوعية فيحكم حينئذ بهواه . من أجل ذلك ينبغى ألا ينفرد قاض واحد بالحكم فى قضية ، وإنما يكون من حوله مساعدون قضاة يحولون بينه وبين الهوى الخفى . . أى الهوى الناشئ عن ظروفه الخاصة والذى ربما يتسرب إلى عقله وضميره دون أن يدرى . . ونحن بالطبع لا نتحدث عن قاض ذى هوى أخلاقى فمثل هذا لا ينبغى أن يلى لنا قضاء .

٧ - ينبغى على القاضى أن يجعل لنفسه نظاما استغفاريا يراجع فيه قضاياه من وقت لآخر قبل أن ينفذ الحكم ، أو أن يكون ذلك نظاما عاما يعمل به فى الدولة وهو ما آلت إليها الأنظمة القضائية فى معظم بلدان العالم . . ولكننا ننبه أن القرآن يطالب بهذا الاستغفار على مستوى الفرد الذى يمارس القضاء . . وبالطبع يرحب بأى نظام استغفارى يعين الفرد والجماعة على الأوب إذا حدث خطأ مقصود أو غير مقصود . فالاستغفار والإنابة (وهى

حسن الأوب) أمران مطلوبان على مستوى الفرد القاضى وعلى مستوى النظام القضائى .

ونختم حديثنا عن هذه الآيات بتوضيح ما أسميناه بالتفسير الحضارى للقرآن الكريم ونشير إلى أن أى محاولة لسجن القرآن فى تفسير تاريخى حتى لو كان ذلك من أسباب نزول الآيات سوف تؤدى بالأمة إلى أن تفقد إشعاعها المتجدد ، فالقرآن يقول :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ (الكهف)

وكما كتبت مرة أن التاريخ أحداث ومناخ ، وعادة ينقل لنا المؤرخون الأحداث دون المناخ فيضعوننا أمام تفاسير مختلفة للحدث لا نستطيع أن نجزم بالحقيقة أمام تعدد التفاسير . . وهذا لو صدقوا فى نقل الأحداث . أما إذا لم يصدقوا عن كيد أو إهمال فإن المصيبة تصبح أشد .

ومن الغريب أن دعاة سجن القرآن فى التاريخ فريقان . . فريق الطيبين المغفلين ، وفريق المنكرين الجاحدين . . نعم نفحص أسباب النزول كأحداث تاريخية ولكن نخضعها لما نخضع له كل دراسة تاريخية من طرائق علمية فى الفحص والغربلة فى الراوى والرواية ، والقرآن جاءنا برؤية كونية ونفسية واجتماعية وحضارية وغيبية ووضع لنا المقياس الوحيد الذى يمكن أن يستخدم فى فحص أى نظام منطقى يقوم على مجموعة من البديهيات الغيبية . . هذا المقياس هو :

﴿ . . . وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ . .

أى التناسق الداخلى وأن البديهيات المعتمدة لا تتعارض فيما بينها وأنها تؤدى إلى نظم متسقة فى ظروف مختلفة .. حتى أن بعض الدارسين الشكليين سألوا سؤالا شكليا :

هل كلمة «اختلافا» وجدت فى غير هذه الآية ؟ .. والجواب أن هذه الكلمة لم توجد على الإطلاق إلا فى هذه الآية ، ولكنى لست من هواة هذا النوع من الدراسات ومن ثم فلن استطرد .

والقرآن الكريم كتاب هداية فى آفاق النفس والمجتمع ومهمة كل الرسل أن يعلموا الناس الكتاب والميزان ، والكتاب هو جماع الحقائق الثابتة سواء تعلقت بعالم الغيب أو بعالم الشهادة ، وسواء وضعت لنا عالما لم نره بعد أو وصفت لنا النفس البشرية فى تقلباتها المختلفة ، أو وصفت لنا ظواهر فى الاجتماع الإنسانى ، أو وصفت لنا مشاهد من الكون المحيط بنا أو الكون البعيد عنا ، أو وصفت لنا كيف بدأ الله الخلق وكيف يعيده .. هذا هو الكتاب والله أعلم .

أما الميزان فهو جماع القيم الأخلاقية التى يدعو إليها الدين لتسود فى داخل النفس وفى المجتمع وفى الكون المحيط والتى بها نضبط كل أعمالنا ونزن كل تصرفاتنا حتى نقوم بالقسط .. هذا هو الميزان والله أعلم ، والله يقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾

(الحديد)

ولكل إنسان نصيب من البينات تهديه إلى الله . . وهو مطالب أن لا يفسد أدوات استقباله للإشارات المرسلة إليه . . يفسدها بالكفر والفسوق والعصيان ، وكلما شحذ أدواته الاستقبالية بالإيمان والطاعة يلقى من الإشارات ما يزيده أمنا وطمأنينة ورضا ، ويعينه على الطاعة ويزيده هدى .

إن البينات تعيش فينا وحولنا ولكننا فى كثير من الأحيان نمر عليها فلا نراها ولا ننتبه إليها . . ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ إن البينات توجهنا إلى طلب الهدي من الكتاب ، والكتاب يهدينا إلى الميزان ، والميزان يحقق لنا القسط . والكتاب كما عرفناه أنفا - جماع الحقائق فى عالم الغيب والشهادة - يعطينا الجدوى الربانية للميزان الربانى . إن القيم الرأسمالية (أو الميزان الرأسمالى) تقف وراءها فكرة المصلحة فى الحياة الدنيا كجدوى رأسمالية . . أما الميزان الإسلامى فتقف وراءه فكرة الفلاح فى الحياة الدنيا والفلاح فى الآخرة كجدوى ربانية ، ولذلك فإذا اضطربت المصلحة العائدة على الفرد فى النظام الرأسمالى - والذى يمر بطبيعته بمراحل متعددة من الاتساع والانقباض - فإن سلوك الإنسان فى مراحل الانقباض ينقبض أيضا وينقلب على عقبيه . . بينما أصحاب الجدوى الربانية ثابتون وراء ميزانهم فى السراء والضراء لأنهم لا يرجون النجاة فى الدنيا فحسب ولكن يرجون النجاة فى الدنيا والآخرة .

ولعلنا هنا نؤكد أن البديل الإسلامى لأى نهضة معرفية فى

المستقبل إنما تقوم على فهم كامل للكتاب والميزان كما أن أى نهضة حضارية سوف تقوم على تحويل هذه المعرفة إلى سلوك يشيع فى الناس ويصبح إلفا مألوفا .

ونعود مرة أخرى إلى سؤالنا : ما الذى عنيناه بالتفسير الحضارى للقرآن الكريم ؟

نعنى بالتفسير الحضارى هذا التفسير الذى يبحث عن الميزان فى القرآن الكريم . . هذا الميزان الذى نجده منثورا فى آيات القرآن الكريم ظاهرا فى بعض الأحيان ومكنونا كالدرة المكنونة فى تلافيف قصة قرآنية أو فى إشارات مثل قرآنى فى أحيان أخرى .

ولعل المثل الذى افتتحنا به حديثنا عن قصة داوود والخصم الذين تسوروا المحراب يشرح المنهج الذى اتخذناه ، فنحن لم نتتبع إعجاز البيان ولم نلهث وراء التاريخ ولم نبحث عن الإشارات النفسية وإنما ركزنا على القيم التى ينبغى أن نخرج بها من أجل إقامة نظم حياتنا .

ولا يعنى ذلك أننى ضد الجهود العظيمة التى بذلت وما زالت تبذل فى الاتجاهات الأخرى . . إننى من عاشقى التفسير البيانى للقرآن الكريم وكنت أتتبع الجهد الرائع لعبقرية أمنا الدكتورة «بنت الشاطئ» وما قدمته فى هذا الميدان متأسية بزوجها الشيخ «أمين الخولى» عليه رحمة الله وكنت كذلك أنتظر أجزاء الظلال لشهيدنا العظيم «سيد قطب» جزءاً جزءاً ، وآكله وأهضمه هضما . . فالظلال مثلا يمكن أن نطلق عليه التفسير الجهادى للقرآن الكريم . . حيث يتلمس الأستاذ «سيد قطب» فى كل آيات

القرآن أدوات الشحن الإيمانى من أجل بعث المؤمن ليقفز إلى الصف الإسلامى فى معركة فاصلة مع الطاغوت .

قرأت له مرة تعليقه على قوله تعالى :﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال] فقال الحمد لله فقد من الله على بهذه التجربة .. ولكنه لم يفسر هذه التجربة الذاتية حتى كان عام ١٩٦٠ أو ١٩٦١ لا أذكر .. وكان قد انتقل من السجن إلى مستشفى القصر العينى وكنت حينئذ أعمل معيدا بهندسة القاهرة فاتفقت مع مجموعة من الإخوة كانوا يعملون أطباء امتياز فى القصر العينى على أن أتخفى معهم فى ملابس طبيب حيث استعرت معطفا أبيض ودخلنا على الأستاذ «سيد قطب» رحمة الله عليه .. وكنت أعرفه قبل أن يدخل السجن فى عام ١٩٥٤ ، ففرح بقدومنا وبعد أن هدأت مراجلنا العاطفية وكفكفت من دمعى وبدأنا فى حديث الروح وسألته : ما هذه التجربة الذاتية التى من الله عليك بها وأنت تتحدث عن الآية ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ... ﴾ .

قال رحمة الله عليه فيما أذكر :

قبل أن أذهب إلى المحكمة وضعوا فى زنزانتى ماء كثيرا على أرضها بحيث لا أستطيع الجلوس على الإطلاق لبضعة أيام (أسبوعا) فلما أخذونى من المحكمة كنت فى حالة شديدة من الإعياء وعدم التركيز على الإطلاق حيث إننى لم أنم لفترة طويلة

لأيام متصلة فلما وصلت إلى المحكمة وجلست غلبنى النوم فنمت نوما عميقا متصلا وأفقت على نداء اسمى وشعرت حينئذ أننى ارتحت كثيرا ، ولما نظرت إلى الوقت أدركت أننى لم أنم لحظه واحدة ولكن الله غشانى بالنعاس أمنة . وحديثا أهدانى أخى الأستاذ أحمد يحيى تفسيرا للشيخ عبد الحميد كشك فلما قلبت النظر فيه رأيت كأن الشيخ عبد الحميد فوق المنبر يعظ الناس وكأنه بهذا التفسير يستكمل رسالته الوعظية التى حجب عنها . . وقلت حينئذ لأخى الناشر أحمد يحيى . . . إن هذا التفسير هو تفسير وعظى . والشيخ الشعراوى شفاه الله يخلط أحيانا تفسيره البيانى بإيحاءات صوفية جميلة يراها أهل الحقيقة متدثرة فى الآيات . ومن هذه الأمثلة مايتحدثون به عن (مجمع البحرين) فى قصة موسى والخضر ، فالبحرين هنا هما بحر علوم الظاهر (الذى كان يعرفه موسى) وعلوم الباطن والذى يقف على لقائهما الخضر عليه السلام .

فأهل البيان يبحرون فى القرآن باحثين عن الدرر البلاغية والإعجاز البيانى ، وأهل التفسير الجهادى يبحرون فى القرآن باحثين عن ما يملأ القلب بالإيمان ويدفع الناس للجهاد ، وأهل الحقيقة يبحثون عن أسرار وأشواق وتجليات . أما نحن فندعو أن تنتظم عملية التفسير الحضارى وتبذل من أجله جهود متصلة ، فالتفسير الحضارى كما عرفناه من قبل ليس شيئا جديدًا وإنما هو أحد الاتجاهات التى مضى فيها المسلمون من قديم ولكنه متناثر هنا وهناك فى كتب التفسير ، وربما يبدو لمحة هنا أو لمحة هناك من غير

انتظام واضح . والتفسير الحضارى ينمو مع الحضارة فهو ينشئها . . . ولكنه يتأثر بنموها . . . وكلما أوغلت فى الحضارة أوغلت فى التفسير وكلما أوغلت فى التفسير أوغلت فى الحضارة .

وكما بدأت أعود فأشير إلى اعتزالى الصيفى مع القرآن ومحاولتى أن أبحث فيه عن ما يعيننا فى عمليات التفسير الحضارى . وبالطبع لم أكن وراء وضع تفسير كامل وإنما هى محاولات متفرقة وأنا أمضى فى ربوع جنات القرآن الكريم فأرجو أن أكون قد هدانى الله بها إلى صراط مستقيم .

مرة أخرى أقول إن تفسير محمد أسد قد أعاننى كثيرا بما لخص لى من آراء الأسبقين سواء المفسرين أو علماء اللغة . . ولنبدأ الآن مع مجموعة من آيات الذكر الحكيم .

***

الاستمتاع بالجمال والكمال فى المخلوقات والتواصل معها

نقرأ فى صورة «ص» فى قرآن ربنا :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾ .

ولقد أورد الشيخ مخلوف تفسيرين ، تفسيرا توراتيا وتفسيرا للأستاذ الإمام محمد عبده . . وهذا تلخيص لهما :

التفسير التوراتى: سيدنا سليمان يروح عن نفسه بمشاهدة الصافنات الجياد ، والصافن من الخيل : القائم على ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر ، والجياد جمع جواد وهو الفرس ذكرا كان أو أنثى إذا كان سريع العدو . . الوقت هو العشى أى من الزوال إلى الغروب . . العرض أمام سليمان مستمر حتى غابت الشمس ولم يصل العصر ، فقال (إنى أحببت) أى آثرت . . (حب الخير) أى الخيل - والعرب تسمى الخيل خيرا - (عن ذكر ربى) أى عليه . . (حتى توارت) أى استترت الشمس . . (بالحجاب) بما يحجبها عن الأبصار . . (ردوها على) أى أعيدوا عرض الخيل مرة أخرى . . (فطفق مسحا بالسوق والأعناق) أى

شرع يضرب سوقها وأعناقها بالسيف قربة لله تعالى وكان تقريب الخيل مشروعا فى شريعته ، وقيل . . المراد بالمسح وسمها لتعرف أنها خيل محبوسة فى سبيل الله .

تفسير الإمام محمد عبده: إن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى شريعتهم كما هو مندوب فى شريعتنا ثم إن سليمان احتاج إلى الجهاد فأمر بإحضار الخيل وإعدائها ، وقال : إنى لا أحبها لأجل الدنيا وحب النفس وإنما أحبها لأمر الله وتقوية دينه . . وهو المراد بقوله ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ ، ثم أمر بإعدائها حتى توارت بالحجاب ، ثم يردها إليه . . فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها عناية بها لكونها من أعظم عدد الجهاد ، وإعلاما بأن من الحزم مباشرة الوالى الأمور كلما استطاع ، لأنه كان أعلم الناس بأحوال الخيل ومحاسنها وعيوبها وأمراضها فكان يمسحها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، ونقل الألوسى عن الشعرانى نحو هذا التفسير ، ثم بعد أن ناقش هذا التفسير قال : إنه وجه ممكن فى الآية على بعد ، إذا قطع النظر عن الأخبار المأثورة .

ونحن لا نستطيع أن نستسيغ التفسير التوراتى ولا نقبله . . خاصة أن سليمان عليه السلام كان واضح الخطوة الربانية فى علاقته بالكون المحيط به ، إنه سليمان الذى يسمع صوت نملة تحذر قومها . . ﴿ ... يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا

وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾ .

فهو إذن يشكر ربه على هذه النعمة العظيمة والتى تمنحه القدرة على الاتصال الرائع بالكون المحيط . . هذه الشخصية المتناغمة مع المخلوقات لا تتسق مع الرواية التوراتية . . أما تفسير الإمام فهو تفسير مقبول وهو وجه ممكن فى الآية بتعبير الألوسى . . وهو هنا تفسير وظيفى ، أى أن سليمان عليه السلام يبدى عناية خاصة بخيل الجهاد يدربها ويمرضها بنفسه وذلك من ذكر الله ، ولاحظ أن التفسير التوراتى فسر كلمة ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ بعكس ما فسره الأستاذ الإمام . ونضيف وجها آخر فى التفسير لهذه الآيات ونحسبه ممكنا على قرب وليس على بعد كما قال الألوسى فى تفسير الشعرانى المقارب من تفسير الإمام محمد عبده :

سيدنا سليمان يجلس بالعشى يستروح من نصب العمل . . تعرض عليه الصافنات الجياد ، وهى خيل قادرة على أن تقف على ثلاث وترفع الرجل الرابعة فى حركة إيقاعية جميلة ، وهى خيل أيضا شديدة العدو . . سليمان يستمتع بهذا الجمال الطبيعى الأخاذ وهذه الحركة الإيقاعية الرائعة . . فيسبح ربه ويردد ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ أى أحببت ما أرى لأن الله أمرنى أن أستروح بالجمال فى الطبيعة والمخلوقات استرواحا لا يعصيه ولا يؤذى أحدا وإنما هو استرواح متسق مع ذكر الله دائما . .

ويظل يسبح .. ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ أى من أجل ربى .. حتى توارت هذه الكلمات وراء أعمق الأعماق فى نفسه .. ﴿ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ حجاب النفس المطمئنة بذكر الله ..

قال ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ وطفق يمسح سوقها وأعناقها حبا لها وعطفا عليها والخيل يحب هذا المسح حبا جما .

إذن نحن بهذا التفسير نكمل الحلقة التى بدأها الأستاذ الإمام وهو ما أسميته التفسير الوظيفى .. وفى القرآن : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾ [النحل]

إذن فهناك رسالتان .. وظيفية وجمالية .. فى خلق الله من حولنا ، ولكن الاستمتاع بالجمال مقيد بذكر الله ، وذكر الله أولا هو شكره ، ثم الالتزام بشريعته فى هذا الاستمتاع .. ستسأل هل مصارعة الثيران والتى يستمتع بها الأسبانيون - عن ذكر الله؟ ... ستسأل هل الملاكمة - والتى يستمتع بها البشر فى كل أنحاء الأرض - عن ذكر الله؟ ... سيحكمك فى كل هذه الأمور أن أى استمتاع لابد أن يكون عن ذكر الله .. شاكرا لفضله ... وملتزما بشريعته ..

وأعجب لشاعر كبير يكتب فى صحيفة الأهرام يحدثنا أنه لا يمكن أن يرقى الفن من غير أن نسمح للموديل الحى . . . وهل لابد أن تقف امرأة عارية ساعات طوال أمام رسام أو نحات حتى نستمتع بالرسم؟ وهل هذا عن ذكر الله أم أنه عن ذكر الشيطان ؟

إن الاستمتاع عن ذكر الله يجعل الاستمتاع ملتزما بالشريعة ومن ثم حفيظ على البيئة حريصا عليها . . أنظر إلى قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [الرعد]

فالحلية والمتاع زبد يذهب جفاء فى رحلة الإنسان الكونية ويبقى دائما ما ينفع الناس فى الأرض . . يبقى للناس فى رحلتهم الممتدة . . . إن الله تبارك وتعالى لا يمنع الناس أن يتزينوا بالحلى وأن يستمتعوا بالطيبات ولكن يجمل لهم القول وينبئهم بالحقيقة الأزلية . . إن هذه الحلية وهذا المتاع زبد يذهب جفاء فى رحلتهم الكونية الممتدة أبد الآبدين ، والرسول ﷺ لم ينه هذا الصحابى الذى رآه يطيل المكث فى زخرفة داره ولكنه ابتسم وقال مداعبا . . الأمر أعجل من هذا .

وعلى كل حال مطلوب من الإنسان المسلم أن لا يفسد بيئته ولا ينضب خزائن أرض الله من طاقة ابتغاء حلية أو متاع . .

أوليست الطاقة هى مصدر هذه النار التى يوقدون عليها ابتغاء حلية أو متاع ؟ . . .

إن ذلك كله يستدعى مخططا تربويا وتعليميا من قبل أجهزتنا التربوية والتعليمية والإعلامية تصرف الناس إلى الاستمتاع بالطبيعة والنفس عن ذكر الله وتحرضهم على ذلك . إن الذى يتدرب منذ صغره على الاستمتاع بالأشياء التصنيعية يظل مرتبطا بهذا طوال حياته وتنمو نفسه بطريقة لا يطربها ولا يمتعها إلا عالم الأشياء التصنيعية من حلى ومتاع . . والعالم كله يشكو من إفساد البيئة نتيجة الغلو فى الصناعة وما يستدعيه ذلك من إفناء الطاقة . . وكل ذلك ليس عن ذكر الله .

ولا جدال أن الاستغراق فى حب الجمال والكمال لمخلوقات الله حولنا سوف يؤدى إلى فهم أعظم لطبائع هذه المخلوقات حتى نتعامل معها بعلم ولا نبيدها كما نفعل اليوم مع الحشرات والطيور . أليس هو سليمان عليه السلام الذى استطاع أن يسخر لمصلحته كل ما حوله من قوة الطبيعة حتى الجن المستخفين عن أعيننا ؟

***

قانون الجزاء المتناقص - (Diminishing Return)

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) ﴾ [محمد]

يقول الشيخ مخلوف : ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ . . أى فيجهدكم بطلبها كلها تبخاوا بها فلا تعطوها والإحفاء : المبالغة وبلوغ الغاية فى كل شىء .

ويقول محمد أسد : ألهمت النفس البشرية فجورها وتقواها ، وخلق الإنسان ضعيفا . ومن ثم فتكليف الإنسان فوق طاقته سوف يؤدى إلى عكس الهدف المقصود من التكليف وهو تزكية النفس - مما يؤدى إلى نقصان التدين .

ونقول أن هذا النص القرآنى يضع بين أيدينا قانونا اجتماعيا فى منتهى الأهمية التربوية والتشريعية ولقد تعلمت من قبل فى قراءاتى الاقتصادية قانونا شبيها بهذا أضرب عليه مثلا :

هب أنك تملك قطعة أرض ذات مساحة معينة وتريد أن تحدد عدد الفلاحين الذين يعملون بها من أجل أن يعود عليك أقصى دخل . قل إن مساحة الأرض خمسة أفدنة مثلا . لو استأجرت عاملا واحدا وعمل بأقصى طاقته سوف يعطيك عائدا معينا . . لو استأجرت عاملين سيزيد هذا الدخل . . لو استأجرت ثلاثة سيواصل الدخل فى الزيادة . .

وهكذا إلى أن تصل إلى عدد أمثل بعدها يقل الدخل نتيحة للأجور المتزايدة للعمال ونتيجة أيضا أن زيادة العمال وكثرتهم قد تؤدى إلى مشاكل فى الإدارة تجعل مضاعفة العمال لا تعنى مضاعفة الدخل .

- وفى مجال التشريع ينبغى أن يكون هذا القانون الربانى أمام واضعى القوانين ومصممى النظم . . فإذا أراد المشروع أن يسن ضريبة ما فلا يسرف فى حجمها . . إن الناس بحكم ما فطروا عليه من خير وما نشأوا عليه من سلوك سيلتزمون بدفع الضريبة العادلة التى تتناسب مع إمكانياتهم ، ولكن إذا كانت الضريبة مجحفة فإن الناس سوف تتفلت منها وعملية التفلت هذه فى منتهى الخطورة على النفس البشرية لأنها تخرج ما فى النفس من أضغان وتعودها على المخالفة وتدفعها إلى العصيان . وإذا ظلت الدولة تسن من التشريعات وتضع من النظم ما يحفى الناس فيبخلوا ويخرج أضغانهم فإن ذلك سيؤدى لا محالة إلى ذهاب هيبة الدولة وضياعها رويدا رويدًا . إن التصميم الأمثل للتشريعات والنظم أمر بالغ الأهمية ، وأنا أضرب مثلا بمسألة الأجور . . الدولة تطلب من موظفيها أعمالا معينة ومفروض أنها تثيبهم عليها ، فإذا لم يكن الأجر فى حجم العمل ربما قبله الموظف الذى تربى على البذل مادام هذا الأجر يفى بالمتطلبات الأساسية لحياة هذا الموظف . . أما إذا كان الأجر لا يفى بهذه المتطلبات ونظر الموظف حوله فرأى أمثلة تدل على عدم العدالة وعلى التوزيع غير العادل للثروات ربما يقوده هذا أن لا يعمل أو أن يطلب من المتعاملين معه من الناس أن يدفعوا هم بقية أجره . . وبمجرد أن نفتح هذا الباب تنمو حاجات هذا الموظف ويزداد فى طلباته . . شعورا منه انه وقد بدأ فى الممنوع لا يرى حدا داخل هذا الممنوع للتوقف المشروع .

أعرف صديقا لى كانت له معاملة مالية مع إحدى الوزارات حيث قام بإنشاء بعض المنشآت لهم ، وذهب صديقى إلى الموظف المسئول عن هذا الأمر وكان سروره بالغا إذ رأى هذا الموظف يؤم المصلين فى صلاة الظهر فى خشوع ظاهر ، فاستبشر صاحبى خيرا ، وقال « فرجت والحمد لله» ولما أظهر صديقى للموظف الصالح أوراق معاملته فوجئ بالموظف يسأل عن نسبته من الأمر ، فسأله الصديق . . أنت رجل تؤم الناس فى الصلاة وتطلب منى رشوة؟ قال الموظف : «أعوذ بالله . . أنا أطلب منك رشوة ! . . إنما أطلب حقى . . أنت مهندس تصغرنى بعشر سنوات . . أنت ستربح من هذه العملية كذا ، وأنا موظف أخدمك والدولة لا تعطينى إلا جزءا يسيرا من أجرى نتيجة هذه الخدمة ، ولذلك فلابد أن آخذها منك أنت وأمثالك» . . واضطر صاحبى أن يدفع للموظف ما يريده . الشاهد هنا أن الموظف فلسف الأمر لصالحه ، وأخرج أضغان نفسه وتفلت من الانضباط الذى ينبغى أن يكون عليه أمثاله . . وكل هذا بدأ من تكاليف الدولة لهذا الموظف بما لايطيق . وتربويا ينبغى أن نعى آفاق هذا القانون ، وأنا من المؤمنين أن التربية الدينية ينبغى أن تضع فى حسبانها أن تكليف الناس ما لا يطيقون يرتد بالهدف إلى الوراء وينقص التدين . . . فمثلا فى مجال المرأة وعلاقتها بالرجل يرى البعض أن المرأة يجب أن تنتقب فلا تظهر من نفسها شيئا وأن لا ترى الرجال ولا يراها الرجال ، وأذكر أننى جادلت مولانا المودودى فى هذا الأمر وكان هذا رأيه حتى نمنع الفتنة فقلت له ومن قال لك أن الله يريد أن يمنع الفتنة . . إن الله يريد أن يحجم الفتنة ، وتحجيم الفتنة غير منعها .

وفى حياتنا كلها نتعرض للفتنة حتى تختبر النفس البشرية . .

والله لا يكلف نفسا إلا وسعها .. ولذلك نهينا عن الخلوة مع الأجنبية ، ثم إنه - يامولانا - المجتمعات التى جربت ما تقول - وكنا نتحدث عن مجتمع خليجى - وقعت فى مصيبة أكبر .. ألا وهى الشذوذ الجنسى .. ثم إن قصة ابنتى شعيب وموسى عليهما السلام خير دليل على ما نقول .

امرأتان تعملان بالرعى ، يلمحهما موسى عليه السلام وهما يذودان فيقبل عليهما ويتحدث معهما ويسقى لهما ، ويرسل شعيب إحداهما إليه تسأله أن يصطحبها لأبيها ليجزيه أجر ماسقى لهما ، ثم إن إحداهما تعرض على أبيها أن يستأجره وتصفه وصفا يليق بوصف المرأة الصالحة لشروطها فى الزواج : القوة والأمانة .

وشعيب يعقب على ملاحظتها بأن يطلبه زوجا لإحدى ابنتيه ..

قصة ما نرى فيها هذا الانغلاق الذى يتحدث عنه البعض بحيث يصبح الرجل فى واد والمرأة فى واد وبينهما حجاب .

واليهود ظلوا يحرمون ويحللون لأنفسهم ويضعون فوق أنفسهم أغلالا وقيودا حتى أضحت اليهودية لايقدر على التدين بها أحد ، ولم ألق يهوديا فى حياتى على شيء من الدين وإنما ينسلخون دائما إلى عادات المجتمعات التى يعيشون فيها . والقرآن يحدثنا أن الله حرم عليهم أشياء كثيرة بظلمهم وليس من الضرورة أن يكون هذا التحريم وحيًا وإنما يكون نتيجة ظلمهم واحتكامهم إلى الجهلة وذوى الهوى من قادتهم الذين فسروا لهم نصوص شريعتهم ليتحكموا فيهم ويسيطروا عليهم . قانون الجزاء المتناقص يجب أن يكون أمام أعيننا ونحن نضع تشريعات أو نصمم نظما سواء كانت هذه النظم تربوية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية ...

مهمة المصلح فى المجتمع

إن آية واحدة فى كتاب الله تضع لنا كل الآفاق المحتملة لرسالة أى مصلح يريد أن يصلح من حال أمته . . . اقرأ قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً (٤٦) ﴾ [الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦]

نلمح فى الآية الكريمة خمسة محاور :

المحور الأول : شهادة الواقع

وهى شهادة تحتاج إلى موضوعية وصدق وعلم ، وأعتقد أن افتقار كثير من المتعرضين للعملية الإصلاحية إلى القدرة الفاحصة لأحوال المجتمع الذين يبغون إصلاحه يجعل جل جهودهم تذهب هباء ، وكثيرا ما نرى تشخيصا خاطئا للواقع ومعه اندفاع نحو إصلاح خاطئ . . . .

والحقيقة أن استهانة الناس بالتدقيق فى شهادة الواقع أمر بالغ الخطورة ، وفى العشرين سنة الأخيرة شاهدنا مصلحين واهمين تسرعوا فى تشخيص أحوال مجتمعاتهم ووضعوا لأنفسهم برامج لا تسمن ولا تغنى من جوع . . بل فى كثير من الأحيان تهدم وتعوق أى بعث حضارى للمجتمع .

وإذا كانت شهادة الزور على مستوى الأفراد جريمة فى كل دين ، فإن شهادة الواقع الملونة بهوى النفس أو القائمة على الجهل بهذا الواقع تعتبر جريمة كبرى .

إن أثر شهادة الزور على مستوى الأفراد تعود على مجموعة صغيرة بالأذى ، ولكن شهادة الزور الاجتماعى تعود على المجتمع كله بالأذى ، ومن هنا فهى جريمة ضخمة ، ومن ثم فعلى الذين يريدون أن يتعرضوا للإصلاح أن يراجعوا قدراتهم على تشخيص الواقع قبل أن يورطوا غيرهم فى برامج تفتنهم هم ومجتمعاتهم وهم مسئولون يوم القيامة عن شهادتهم التى شهدوها عن جهل أو عن سوء نية مقصودة .

إن كثيرا من الشهادات التى تسمعها عن المجتمع المصرى شهادات مجملة لا تفصيل فيها كما أنها تقوم فى معظمها على الإشاعة وقليل منها من يعتمد منهجا علميا إحصائيا فى دراسة الواقع .

اشتركت مرة فى ندوة عن التعليم فى مصر فهالنى ماسمعت عن النظام التعليمى فى مصر ، لولا أننى انتبهت أننى أعمل فى حقل من حقول التعليم وأبنائى جميعا تعلموا فى مصر كما أننى سافرت وعملت فى بلدان كثيرة فى ميدان التعليم ولى كتابات متعددة فى الأمر . . تنبهت حينئذ إلى عدم دقة الشهادة وتشاؤمها الشديد . . نعم نحن فى حاجة إلى إصلاح تعليمنا ولكن المتحدثين لم يضعوا أيديهم على نقاط الضعف التى تحتاج إلى إصلاح وخاضوا فى أمور لا أراها حاكمة حتى للأهداف التى يبغونها . . . ورددت يومها : تعليمنا مازال بخير .

المحور الثانى: التبشير بالخير الموجود فى الواقع ◆

فمن واجب المصلح الذى فحص الواقع فى شهادة عالمه مخلصة

أن يبشر الناس بنواحى القوة والخير فى مجتمعهم .. ولا يكتم الشهادة وينصرف فحسب إلى ذكر السوءات .

إن التبشير بالخير مقدم على الإنذار بالسوء فى الآية وهكذا يجب أن يكون الترتيب فى البحث وفى خطاب الشهادة . إن المصلح يبحث عن ركائز يرتكز عليها فى عمليته الإصلاحية ، إنه لا يبدأ من حالة الصفر وإنما يبدأ من واقع فيه خير وفيه شر ، والإصلاح عملية متصلة وليست عملية فجائية قسرية ، والمصلح الذى يعترف لنفسه أولا بوجود خير فى المجتمع ثم يبشر به ويبدأ بالعمل بناء عليه سوف يكون أكثر رشدا من آخر يتهم المجتمع كله بالفساد وينادى بالتغيير الشامل الكامل الذى لا يعرف كيف يبدأه هو مع نفسه ومع من حوله فضلا عن المجتمع كله .

وكما قلت أن المصلح يحتاج إلى مرتكزات يرتكز عليها فى عمليته الإصلاحية أو قل يحتاج إلى بذور فى سماء المجتمع يتجمع حولها المطر ، ولذلك فبحثه الجاد عن نواحى الخير فى المجتمع واعترافه بها لنفسه ولمجتمعه سيكون عونا له على عملية الإصلاح .

المحور الثالث: الإنذار بالسوء الموجود فى الواقع ◆

والنذير لابد أن يكون مصدقا عند قومه فلا ينذرهم بما ليس فيهم وإنما يضع أيديهم على مناطق الضياع والسوء وليتلطف فى تنبيههم ولا يستخدم ضمير المخاطب «أنتم كذا وكذا» وإنما يستخدم دائما «نحن كذا وكذا» ويضع نفسه معهم وكأنه هم مشترك .

فمثلا إذا كانت هناك سوءات سياسية ، فبدلا من أن يتحدث المصلح عن مؤامرة خفية تحاك ينبغى أن يتحدث عن التجربة والخطأ وأننا جربنا ذاك الأمر ، وأحسب أنه يمكن أن يجرب هذا الأمر وأحسب ذلك أقرب للرشد وأكثر نفعا . أى أن خطاب النذير ينبغى أن يلتزم بآداب الإسلام العامة ، فلا يجرح ولا يغتاب ولا يشيع شائعة ليس عليها برهان وليتطلف ويتدرج فى إنذاره ولا يضخم السوءات حتى يظن الناس أن لا نجاة ، وقبل هذا كله لابد أن يكون معروفا بالصدق وبالعلم فى مجال إنذاره . . فمثلا سيصعب على الناس أن ينتبهوا إلى إنذار خباز أو نجار عن سوءات نظامنا التعليمى أو الاقتصادى ، ولكنهم سيسمعون لأستاذ فى الاقتصاد يتكلم عن نظامنا الاقتصادى وينذرنا سوءاته .

المحور الرابع : الدعوة إلى التغيير بمنهج وشريعة ربانيين {وداعياً إلى الله بإذنه}

إنه لايكفى المصلح أن ينذر الناس بسوءاتهم ويدلهم عليها وإنما ينبغى أن يدلهم على البديل الربانى ، فلا يكفى أن نصرخ فى الناس «الأخلاق منهارة» ، وإنما ينبغى أن نعرف مناطق القوة فى أخلاقنا (التبشير) ومناطق السوء فى أخلاقنا (الإنذار) ، ثم كيف نصلح هذا السوء بمنهج ربانى وندعو الناس إلى التغيير بإذن الله أى بشريعته وبمنهجه ، والقرآن يأمر سيد المصلحين محمداً ﷺ أن يقول :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨]

فالبصيرة فى التغيير مطلوبة على مستوى المصلح والمصلحين ، والمصلح الذى يؤمن بمنهج عظيم للتغيير ولا يستطيع أن ينقل هذه القناعة والإيمان إلى المجتمع أو على الأقل إلى القطاع القادر على التغيير فى المجتمع ، هذا المصلح لن يستطيع أن ينجز شيئا ذا بال فى حياته ، والمنهج الربانى يستدعى التدرج والرفق بالناس ، فربما كانت الفجوة بين المطلوب والواقع ضخمة وتجاوزها مؤلم وعسير ، فى مثل هذه الأحوال يضطر الداعية المصلح للتدرج والرفق حتى يعبر الناس الفجوة آمنين .

وبعض الصالحين يظنون أن التدرج الذى حدث زمن النبى الخاتم محمد ﷺ لا ينطبق فى غير عهده ويتحدثون عن ناسخ ومنسوخ ولكن الدرس القرآنى خالد لكل العصور ، كلما كانت هناك فجوة بين واقع ومأمول نتخذ دائما الترفق والتدرج حتى نعبر من الواقع إلى المأمول . حدثنى أخ ذو صلة وثيقة بإحدى دول وسط آسيا ، تعمل معه سكرتيرة تأثرت كثيرا بالإسلام فأسلمت . . ولكن زوجها وابنها الوحيد لم يسلما ولكنهما فى نفس الوقت لم ينكرا عليها إسلامها . . فجاءها من يفتيها «عليك أن تتركى زوجك وولدك . .» قالت لصديقى ودموعها تجرى أنهارا . . إن زوجى رجل كريم حليم . . لم يسئ إلى يوما ما . . جمعتنا سنوات الحب والاحترام . . ولكننا معشر الروس نشأنا على الإلحاد ، ولولا أن من الله على بالعمل فى معيتك لظللت ملحدة . . وأنا حريصة على إسلامى ومتأكدة أن الله سوف يشرح صدر زوجى للإسلام يوما ما . . سألنى صديقى وهو من أفقه أهل الأرض . . ماتقول يا صاح . . قلت تعرف رأيى فى هذا الأمر

أعيـده على أذنيك . . درس القـرآن فى التـدرج لا عـلاقـة له فى رأيى بناسخ أو منسوخ وإنما هو درس حضـارى . . كلمـا نشـأ فـراغ بين واقع ومأمول اتخذنا أعظم السبل للعبور من الواقع إلى المأمول متدرجين بالناس حتى لا نخيفهم ونخرج أضغانهم . . وأنت تعلم أن زينب بنت المصطفى ﷺ ظلت تحت زوجـهـا العـاص سنوات طوال ولم يكن قد أسلم . . هى مسلمة وهو غير مسلم . ولذلك فـأنا أقـول فلتـبـقى هذه المسلمـة مع زوجـهـا الكريم الحليم وابنهـا ويكفـيـهـا أنهم سيـرون ماذا فـعل الإسـلام بهـا من خيـر فـربما يرق قلباهما للإسلام .

كان هذا منذ عام ، وفى الصيف الماضى أسلم الابن وأسلمت قريبة للسيدة . . والخير آت لهذه الأسرة الطيبة المباركة .

هذه القصة التى رويت حدثت فى مجتمع مشابه للأيام الأولى للإسـلام فى مكة فـلا يتخـذها البعض فتوى لبلد استـقرت فيـه أوضاع الإسلام مثل مصر أو السعودية .

فى مثل بلادنا هناك فجوات أخرى تتعلق بأخلاق اجتماعية ولكننا والحمد لله مستقرون فى حياتنا الأسرية .

المحـور الخـامس : المصلح لابد أن يـرى الناس منه القـدوة فـيـمـا يدعو إليه {وسراجا منيرا} ◆

التغيير بالقدوة هو أعظم وسيلة للتغيير الاجتماعى . . إن أكثر الناس لا يشغل نفسه بالتفلسف وإنما يريد أن يرى القدوة فيتبعها . والله تبارك وتعالى يمن على العباد :

﴿ لقـد كـان لكـم فى رسـول الله أسـوة حـسنة . . .﴾ ولابد أن

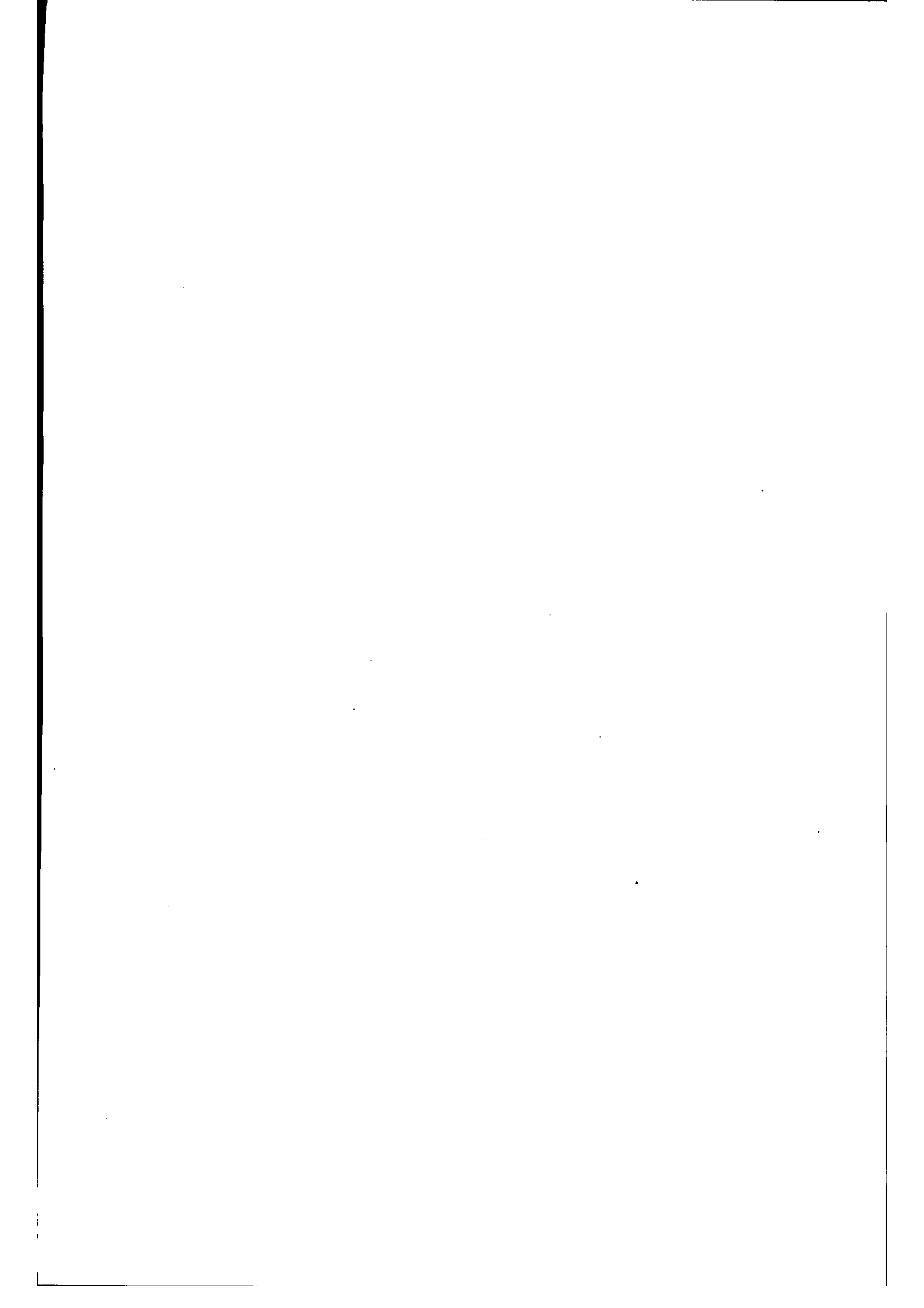
يأخذ المصلح نفسه بالشدائد وعزائم الأمور ولكنه يوضح للناس أن هذا شأن القائد وحده والأمر بالنسبة للناس فيه يسر وتيسير .

ولذلك فمحمد رسول الله ﷺ والذين معه كانوا نجوما ساطعة فى سماء الدنيا . . . أعطوا أعظم الأمثال وأروا الإنسانية أن التغيير ممكن وفى وقت جد قصير . .

عمر بن الخطاب الذى يئد ابنته وتظن جارته يوما ما وقد رق لها أنه ربما يسلم فيقول لها زوجها : «والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب» . . هذا العمر يصبح فى برهة من الزمن أعظم حاكم بعد رسول الله فى تاريخ الدنيا ، ويتذكره صاحب العظماء المائة ويضعه فى وسطهم درة من درر التاريخ النادرة .

والحكومة التى تريد أن تصلح تبدأ برجالها ليعطوا نموذجا للقدوة المطلوبة . . إن التغيير بالقانون والقهر لن يجدى والناس ترى رجالات الحكومة لا يأخذون أنفسهم بما يريدون من إصلاح . . إن مثلا طيبا واحدا خير من ألف محاضرة .

وأكبر مؤامرة فى تاريخ الإنسانية هى ما فعله اليهود فى تاريخ أنبيائهم حيث حرفوا الكتب المقدسة وأضافوا إليها التلمود واستطاعوا أن يحطموا نماذج القدوة الصالحة فى الأنبياء والصالحين ، وأصبحنا نرى أنبياء يرتكبون جرائم قتل وزنى وسرقة . . أنبياء مزيفين . . ولقد جاء القرآن فأعاد إلى هذه القدوة شرفها ورفعها مكانا عليا ولذلك فإنه ينبغى علينا أن ننقى تفاسيرنا من هذه الإسرائيليات حتى لا تمس هذه القدوة المطهرة فى شخوص الأنبياء والصالحين ونرتد دون أن ندرى إلى درك التحريف الذى مارسته أجيال بنى إسرائيل الضالة .



الأعـراف... والـتـمـيـيـز بـين الحـق والباطل... والامبالاة

يقول الله تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) ﴾ [الأعراف: ٤٥ - ٤٩]

هذا ما انتهى إليه حال أقوام فى الآخرة فما كان حالهم فى الدنيا وما هى قضيتهم ؟

توقفت كثيرا عند ما نقله أسد عن الفخر الرازى والذى نقل باستحسان كبير تأويل الحسن البصرى والزجاج لمعنى ﴿ ...وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ... ﴾ والذى يؤولها بمعنى «رجال على معرفة» أو قل «رجال ذوى قدرة على التمييز بين الحق والباطل» ... أى أنهم يملكون ملكة التمييز (faculty of decernment) بل إنه سمى السورة فى ترجمته بنفس الكلمات . والأعراف جمع عرف وقد فسره معظم المفسرين على أنه يرمز إلى مكان مرتفع يقف فوق

الحجاب الحاجز بين الجنة والنار .. مكان مرتفع فوقه هؤلاء الرجال فيتطلعون بأعينهم إلى أهل الجنة ، لم يدخلوها وهم يطمعون ، ثم تصرف أبصارهم (كأنهم لا يريدون صرفها وإنما تصرف رغم أنوفهم) إلى أهل النار فيستعيذون بالله منها ويدعون ربهم أن لا يجعلهم مع القوم الظالمين .

والآيتان بهما مفاتيح حضارية يمكن أن تدلنا على الطريق المستقيم فى فهمها ...

فأولا هناك حجاب يفصل بين الجنة والنار فى الآخرة كما أن هناك حجاب بين الحق والباطل ... وهذا الحجاب يعرفه أهل المعرفة فلا يختلط عليهم الحق بالباطل ، وأهل الإيمان فى الدنيا يدعون ربهم «اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه»

وأول أدوات الشيطان وأعوانه من المستكبرين هو فى طمس هذا الحجاب الحاجز بين الحق وخلق منطقة ضبابية بينهما حتى لا يعرف الناس إن كانوا على حق أم على باطل . إننا نرى فى عالم اليوم أجهزة جبارة تزين الباطل فكأنه الحق وتستعدى الناس على الحق وكأنه الباطل . إن فرض القيم الحياتية التى تسيطر على الحضارة الغربية قد بدأ ينتقل إلينا فى كل نواحى الحياة : اجتماعية واقتصادية وسياسية ، فأضاف إلى تخلفنا القديم مزيدا من التخلف وأربك حياتنا وقضى على شفافية الحجاب الحاجز بين الحق والباطل . إننا نرتكب جرائم تربوية وتنموية دون أن يخطر على بالنا أننا نفعل ذلك ، ولذلك أمرنا ربنا أن تتفرغ من

كل فرقة منا طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون . فكل فرقة تنموية ينبغى أن تكون لها مرجعية واضحة وأن تخصص من أفرادها من يعكف على النظر العميق والرؤية البصيرة والتى تضع بوضوح شديد خريطة الحق والباطل وما بينهما من مناطق عازلة حتى لا يقع الناس فى غفلة منهم فى الباطل وهم لا يحذرون .

والحجاب الحاجز قد يكون سميكا وقد يكون رقيقا ... كل حالة من الحلال والحرام بحسبها . والقرآن يعلمنا أن هناك جرائم ذات مجال كبير وهناك جرائم لا تحتاج إلا إلى سورٍ رقيق . ففى مجال الزنا مثلا يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ ولا تقربوا الزِّنَىٰ ﴾ فهى جريمة ذات مجال وتحتاج إلى حجاب حاجز سميك يفصل بين الحلال والحرام . بينما فى المواريث لا يحتاج الأمر إلا إلى سورٍ حاجز فيتحدث عنها القرآن بقوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... ﴾

إننا مثلا فى مجال التنمية نحتاج إلى فهم عميق لمنطقة الحجاب الحاجز بين الحلال والحرام ، لأن معظم جرائمنا التنموية لا رجعة فيها إلا بعد هلاك الحرث والنسل وضياع الطاقة .

ثم يتحدث القرآن عن رجال على معرفة بالحق والباطل ومعرفة بأهل الحق وبأهل الباطل ... يعرفون كلا بسيماهم ، وكما فصلنا من قبل فى حديثنا عن معنى قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ فإن هذه المعرفة معرفة لا تدخل فى عالم الضمائر وإنما تنبع من عالم الأفعال والسلوك ... أى أنهم

يستطيعون معرفة الحق والباطل فى عالم الأفعال والسلوك . هؤلاء كان ينبغى عليهم أن يؤازروا الحق ويناهضوا الباطل ولكنهم وقد تبين لهم الهدى وتبين لهم ما ينبغى فعله من عمل يؤازر الحق ويدحض الباطل لم يحاولوا أن يفعلوا شيئا وإنما وقفوا صامتين لا مبالين ولا ينصرون باطلا . . هؤلاء يسميهم أسد . . . اللامباليين .

إن هذه الطبقة من العلماء والمثقفين القادرين على التمييز بين الحق والباطل والذين يفضلون أن يقفوا موقف الحياد بينهما دون أن يرجحوا كفة أحدهما على الآخر هى طبقة فى منتهى الخطورة فى حياة الشعوب . فلأنهم طبقة من المثقفين الواعين لمجريات الأمور فإن موقفهم المائع المحايد بين الحق والباطل يدفع بطبقات كثيرة من الجماهير إلى الانصراف عن مؤازرة المواقف الحقة ، فالناس عادة ترنو أبصارها إلى هؤلاء المثقفين وتتخذ لنفسها مواقف تأثرا واقتداء بهم .

ثم إن هذا الموقف المائع يطيل فترة الصراع بين الحق والباطل وتظل القضايا المصيرية معلقة وتضيع على الأمة فترات طويلة قد يصبح الإصلاح بعدها صعب المنال .

إن انحياز المثقفين وأهل الوعى إلى معسكر الحق يزيد من صلابة أهل الحق ، وأنا شخصيا طالما شعرت بمرارات كثيرة من مواقف واضحة البياض ومن أشخاص يعرفون الحقيقة ولكنهم آثروا العافية ونأوا بأنفسهم أن يقولوا قولة حق ، صحيح أنهم لم يقولوا باطلا ، فاستحقوا بذلك أن يكونوا يوم القيامة فى هذا الموقف العجيب : لا إلى الجنة ولا إلى النار .

يقول الله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ... ﴾ إلى بقية الآية .

تعجبنى ترجمة أسد لمعنى كلمة السجود ... إذ يقول :

Sujud : (prostration) stands for the innermost consummation of faith, while its trace signifies the spiritual reflection of that faith in the believer's manner of life and even in his outward aspect. Since its face is the most expressive part of man's personality, it is often used in the Qur'an in the sense of one's whole being .

أى أن **السجود** هو التمكن الكامل للعقيدة فى القلب والعقل وأثر السجود هو ظهور هذه العقيدة المتمكنة من العقل والقلب فى كل توجهات الإنسان فى الحياة بحيث يكتشف وجود هذه العقيدة من هذه الآثار التى تدل على وجودها حيث تصبح وكأنها سمة فى الوجود شديدة الإعلان عن نفسها .

فنحن لا نتعرف على عقيدة إنسان من كلام يقال أو صياغة لفظية يسكبها أهل الكلام وإنما من مجموعة الآثار لهذه العقيدة والتى تحدد وجهته فى الحياة أو قل تحدد الجهات التى يولى إليها الإنسان وجهه .

ومن معطيات هذه الآية أننا كمجتمع لا نستطيع القياس المباشر للعقيدة فى القلب والعقل لإنسان ما وإنما نقيس آثارها فى السلوك عندما تفيض على حركته وتصبغها بصبغة مميزة بها . وأشفق كثيرا على هؤلاء الذين يجهدون أنفسهم فى تكفير الناس ببعض ما يقولون وتصنيف البشر حسب خريطة كلامية تحدث بها رجال فى القديم ، رغم أن اللغة حاملة الكلام ليست بالضرورة متطابقة عند كل الناس ورغم أن الترادف اللفظى والمعنوى من نقائص الإنسان اللصيقة به على الدوام وليس فى الدنيا من كتاب أو كلام خلا من هذه النقيصة إلا كتاب الله جل وعلا . . القرآن الكريم .

وأعتقد أنه يمكن وضع مقاييس للسلوك المرتبط بتفاصيل عقيدة ما والدال على وجود هذه العقيدة .

فالذى يؤمن أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين لا يمكن أن يكون بخيلا فإذا ظهر البخل فى سلوك هذا الإنسان فإن هذا الجزء من العقيدة جزء معطل .

والذى يؤمن أن لله العزة جميعا لا يمكن أن يبحث عن العزة والجاه عند أحد من خلقه ، فإذا بحث فلا جدال أن هذا الجزء العقيدى معطل فى داخله .

والإنسان المؤمن مطالب أن يضرب فى الأرض ليعمرها ولكن لا ينبغى أن يركن إليها ولوشيئا قليلا ، فإذا ركن إلى شىء من هذه الدنيا كان ذلك دليلا على فساد جزء من عقيدة التسليم لله وأنه صاحب الأمر وبارئ الخلق وعنده الركن الشديد .

كنت وأنا صبى صغير أقرأ قوله تعالى : ﴿جمع مالا وعدده﴾ فأظن أن المعنى المقصود هو عملية العد ، وكنت أفزع إذا وجدتنى أحصى ما معى من قريشات . وكنت إذا مررت ببعض أقاربى ورأيتهم منهمكين فى إحصاء ما لديهم أقول متهكما ﴿جمع مالا وعدده﴾ . . حتى إذا قرأت ترجمة أسد وما نقله عن الجوهرى وفهمت المعنى المقصود من قوله تعالى : ﴿جمع مالا وعدده﴾ أى جمعه وجعله عدة له فى الدنيا ، أى أنه ركن إلى ما جمع من مال تغير فزعى الصبيانى إلى فزع يلاحقنى فى كل سعيى فى الحياة . وبدأت تصم أذناى ما يتفوه به الأصحاب من حولى . . . يقولون :

يا أخى أريد أن أجمع مالا يكفينى العيش فى شيخوختى .

يا أخى أريد أن أجمع مالا يكفى لذريتى بعد وفاتى .

يا أخى أذهب إلى الخليج وأجمع ثروة فى فترة قليلة وأعود بعدها إلى مصر لأتمتع بها وأبدأ بها مشروعات اقتصادية . . .

إلى آخر هذه الأقاويل المضحكة ، والتى أثبتت الأيام أنها من مزاح الشياطين ووسوستهم للمؤمنين . وأذكر فى هذا الصدد حديث رسول الله ﷺ متحدثا عن نبى الله لوط الذى قال لقومه ﴿لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد﴾ قال المصطفى : رحم الله أخى لوط . . لقد كان يأوى إلى ركن شديد .

ونعود إلى ما بدأنا به حديثنا : وهو أن سجود العقل والقلب لله سجودا خاشعا يعنى تمكن العقيدة من العقل والقلب وهو أمر لا

يراه أحد ولا يبصره مخلوق إلا من خلال أثره الذى نقيسه ونراه ممثلا فى وجهة الإنسان فى الحياة سلوكا مستقيما .

ولعلى أقترح على علماء الاجتماع فى هذه الأمة موضوعا جديدا يصلح لعمل بحوث متصلة هدفها التعرف على مناطق الخلل فى العقيدة من واقع السلوك الحياتى . وأنا هنا لا أتحدث عن عقيدة الأفراد فردا فرداً وإنما أتحدث عن العقائد السائدة والتى يمكن أن نسميها عقائد اجتماعية . ولا يظن أحد أن هذا أمرا سهلا وإنما هو أمر بالغ التعقيد ويحتاج إلى علماء موهوبين وطلبة بحوث متفوقين . ونحن فى العلوم غير الإنسانية نهتم بنظرية شبيهة بهذا نسميها «نظرية التعرف» (identification theory)

حيث نحاول أن نتعرف على القوانين الحاكمة للنظام من خلال أدائه الخارجى فى الاستجابة لمجموعة من المؤثرات الخارجية المعروفة ، أى أن نقيس مدخلات النظام ومخرجاته ثم نتعرف من خلال ذلك على القوانين الحاكمة للنظام . ولسوف تكون هذه الدراسات الاجتماعية بالغة القيمة للمتصدين للعملية الإصلاحية فى الأمة .

فى ميدان كميدان الاقتصاد وهو ميدان يمثل نقطة ضعف شديدة للأمة نظن أن الأمر منبت الصلة بمجموعة العقائد المستكنة فى عقول وقلوب الرجال . إن روح المغامرة التى تميز انطلاقة الاقتصاد الغربى والتى تدفع بالموسرين أن يغامروا بأموال هائلة فى دعم عمليات البحث التقنى بحثا عن منتجات جديدة لتحقيق رغبات حياتية معينة ، إن هذه الروح الدافقة فى قلوب وعقول

الرجال هى التى تحدد معارك الدنيا هذه الأيام وترسم دوائر التخلف والتقدم التكنولوجى . صحيح أننا نعرف أنه يكمن وراء هذه الروح المغامرة الاستماتة فى حب الدنيا والرغبة فى العلو والهيمنة وهذا بطبيعة الحال من طبائع الناس عندما تنبت صلتهم بالسماء . ولكن فى المقابل فى عالمنا الإسلامى فى وقتنا هذا لا توجد هذه الروح المغامرة فى الاقتصاد . . . لا عند الأفراد ولا الجماعات ولا الحكومات . ولا أكاد أعرف بنكا مهما كانت اللافتة التى يعلقها على بابه ينفق على البحوث الصناعية قليلا أو كثيرا . والسؤال : هل العقائد السائدة فى المجتمعات الإسلامية والمستكنة وراء هذه الروح الحياتية فى الاستثمار الصناعى هى عقائد إسلامية ؟ . . .

كلا . . . بل إن وراء ذلك فكر شيطانى تعبر عنه الآية الكريمة : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ . . . ﴾ إن كتابة اللافتات وسبك الكلام لا يغنى عن الحق شيئا . . . صحيح أن ضبط المصطلحات الكلامية التى تصف العقائد أمر بالغ الأهمية ولكن الوقوف عند هذا الأمر دون ترجمة هذه العقائد إلى سلوك واضح أمر فى منتهى الخطورة وهو أكثر خطورة من غيم المصطلحات التى يصحبها سلوك راشد .

ونؤكد فى نهاية هذه الملاحظات على ضرورة أن يتوجه علماء الإنسانيات إلى ضبط مقاييس علم جديد ولنسمه علم «التعرف العقيدى الجماعى» نتعرف من خلاله على العقائد الحقيقية وليست

العقائد المدعاه وننظر فى طرائق تقويم نقصها وفسادها حتى تصبح فى النهاية كتلك العقائد العظيمة التى استكنت فى قلوب وعقول خير أمة أخرجت للناس : ﴿محمد رسول الله والذين معه﴾ .

ومرة أخرى نحن نتحدث عن علم «التعرف العقيدى الجماعى» وليس عن علم التحفير فى ضمائر الناس من أجل اتخاذ مواقف منهم تؤذيهم وتضرهم . فنحن مدرسة لا تشق عن قلوب الأفراد وتحفر فى خباياها ونسأل الله الستر لأنفسنا ولإخواننا وغفر الله لفريق من الناس شق على نفسه وعلينا وأدخلنا فى دوائر خبيثة نرجو الله منها السلامة .

حكى لى صديق يعيش فى العمرانية أن مجموعة من الشباب تكاثروا فى مسجد هناك فى أواخر أيام الرئيس السادات ، وكل من دخل المسجد سألوه : هل تؤمن أن السادات كافر ؟ . . . يتلعثم الرجل وربما قال : لا . فيبادره السائل : إذا أنت كافر ، لأنه من لم يكفر كافرا فهو كافر .

إن اتجاه التكفير لا حدود له ، ولقد سمعت من بعض الصبية فى الولايات المتحدة نقلا عن بعض مدعى العلم فى الخليج طعنا فى عقيدة حسن البنا وسيد قطب وأخيرا محمد عمارة .

وبعد ، فلنتذكر دائما هذا الوصف المعجز لجماعة المؤمنين ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ ونعلم أن هذا ليس إنشاء جميلا أو سحرا لفظيا فحسب وإنما هو منهج لقياس أداء الجماعة ككل . . . عندما تحاول أى جماعة تدعى الإيمان أن تقيس أداء نفسها .

مقدمة

منذ سنوات كنت متجها إلى لندن ، حيث ظلت تحيط بى وأنا فى الطائرة مجموعة من المعانى الجديدة لقصة أصحاب الكهف والرقيم .

وفى لندن التقيت بصديق قديم يقيم فيها هربا من طغيان النظام السياسى فى بلده ، وسألنى الصديق عن الأحوال الإسلامية فى مصر المحروسة . قلت أن درجة الحرارة الإسلامية فى مصر والحمد لله فى ازدياد مستمر . . . على مستوى الأفراد والمؤسسات والفنون والاجتماع . . . قال والسياسة ؟ . قلت يعتريها ضباب فلا أفهم ما وراءها فى كثير من الأحيان . . ورغم هذا الشغب الظاهر بين الحكومات وتيار مصر الإسلامى والذى يمثل هذه الأيام التيار الوطنى السائد فإن هناك محرمات سياسية لا تمسها الحكومات . . فمصر دولة إسلامية بنص دستورها ، وقوانينها تستمد من الشريعة الإسلامية ، وهى جزء من محيطها العربى والإسلامى ، هذه الأمور ليست محل نزاع بين الحكومات والشعب وهى مستقرة بحمد الله فى وعائنا الاجتماعى والسياسى . فمعاركنا إذا هى معارك إصلاحية فى ظل ما ذكرنا من محددات للهوية الوطنية . صحيح أنك تسمع ضجيجا مخالفا لأصحاب الرؤى المادية الفاشلين والذين يحاولون أن يستغلوا هذه المعارك السياسية لحسابهم أو لحساب من يعملون لهم . . لكن هؤلاء لا يمثلون وزنًا لا فى النظام ولا فى التيارات الوطنية .

وقبل أن أسأله عن أحواله بادرنى : ولكن الأوضاع فى بلدى شديدة السوء ، فالصراع الآن ليس فى تجاوزات سياسية أو أمنية من الحكومة أو المعارضة ولكنها عملية استئصال للعقيدة تستخدم فيها الدولة كل أسلحتها ، ولم يعد يشغلنا الآن مكاسب سياسية إنما يشغلنا أن توقف الدولة حربها ضد الإسلام بدعوى تجفيف المنابع ، ولا ندرى ما نفعل ، ثم سألنى ماذا ترى ؟

وتداعى على رأسى ما كنت أفكر فيه وأنا فى الطائرة فى طريقى إلى لندن وقلت له على الفور :

﴿ فأووا إِلَى الْكَهْفِ ينشرْ لكُمْ ربُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ وإذ أستجمع فى هذا الصيف هذه النفحات الربانية التى تشع من قصة أصحاب الكهف والرقيم رأيت أن أسجلها فلعل القارئ يجد فيها حقًا وموعظة وذكرى للمؤمنين .

القصة فى تراثنا التفسيرى

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا . . ﴾

فهى قصة تمثل سنة من سنن الدعوات الإصلاحية ، وهى متكررة كلما تكررت ظروفها ومن ثم فلا عجب من حدوثها حدوثا ماديا كما حدث لأصحاب الكهف والرقيم أو حدوثا حضاريا يأخذ عبرته وحكمته من إشعاعات الحدوث المادى .

أما الحدوث المادى فقد سألت عنه قريش بإيعاز من بعض أحبار اليهود ونلخص ما جاء فيه من أثر . قيل أن فتية من أتباع

المسيح عليه السلام كانوا يعيشون فى مدينة أفسوس أو طرسوس وهى مدينة شهيرة بآسيا الصغرى ، هؤلاء الفتية تمسكوا بعقيدة التوحيد الحقة فى مواجهة قومهم الذين حادوا عن هذه العقيدة واتخذوا من دون الله أربابا يعبدونهم ، وكان الملك واسمه دقيانوس على هذه العقيدة الضالة . ولما رأى هؤلاء الفتية أنهم لا يملكون من خيار إلا الردة أو الرجم أو الهرب بعقيدتهم آثروا أن يأووا إلى الكهف مختفين من فتنة الملك وأصحابه .

تقول القصة أنهم ناموا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا . ولما أفاقوا من نومهم تساءلوا بينهم : كم لبثنا ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم . وكانوا جائعين فبعثوا أحدهم بنقودهم الفضية إلى المدينة ليتخير لهم طعاما زكيا وأوصوه أن يتلطف مع الناس ولا يشعرن بهم أحدا . ولما رأى أهل المدينة هذه النقود الفضية وهيئة الرجل اجتمعوا عليهم مبجلين مكرمين ، فلقد تحولت المدينة مع مرور هذا الزمن إلى عقيدة هؤلاء الفتية ، وكانت قصة غيبتهم قد ذاعت بين الناس .

ويرى أسد فى ترجمته أن أصحاب الكهف والرقيم لم يكونوا من أتباع عيسى عليه السلام ولكنهم كانوا من بنى إسرائيل ، وكانوا ينتمون إلى حركة إصلاحية فى القرون القليلة التى سبقت ظهور عيسى عليه السلام ، وأن ظهور عيسى عليه السلام ربما كان تتويجا لهذه الحركة الإصلاحية التى عزلت نفسها فى منطقة البحر الميت بعيدا عن سلطان الجبابرة ونذرت نفسها لدراسات الكتب المقدسة ونسخها ، وعاشت هذه المجموعة فى عزلة تامة

عما حولها وتركوا ورائهم كثيرا من صحائفهم والتى اكتشفت حديثا بالقرب من البحر الميت (Dead Sea Scrolls) ولقد عرفت هذه الجموعة الإصلاحية بجماعة قمران . وهذا هو ظن أسد ، ولكننى أرى أن أسد يخلط بين الشق المادى الذى تحدث عنه القرآن وبين إشعاعات حضارية . وليس هذا منهجنا . . ذلك أننا لا ننكر الشق المادى ولكننا نظن أن له إشعاعات حضارية . . هى التى نبحث عنها من غير أن نخوض فى هذا الشق المادى منكرين . والقرآن يتحدث أحيانا عن «أمثال» ويتحدث أحيانا أخرى عن «قصص» . . . أما الأمثال فليس من الضرورى حدوثها المادى التاريخى ، وأما القصص فهو فى عقيدتنا ثابت الحدوث تاريخيا .

ومن ثم فإذا تحدث القرآن عن أصحاب الكهف والرقيم أو عن موسى والخضر أو عن مريم والمسيح أو عن إبراهيم وإسماعيل ، فذلك كله من القصص الثابت الوقوع تاريخيا . وسواء كان القول القرآنى قصصا أو أمثالا فإن الهدف هو تثبيت الأفئدة بالحق بطريقى الموعظة التى تغنى الروح والذكرى التى تمنطق العقل . . ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وفى رأينا أن أسد فى ترجمته قد تجاوز القصد إذ يظن أن كثيرا من القصص القرآنى هو مما شاع فى الناس قبل الإسلام و استخدمه القرآن كآلية قصصية يسوق من خلالها قيمه وتعاليمه . وفى قصة أصحاب الكهف والرقيم يتصور أسد أن جماعة قمران

هذه التى تحدثنا عنها آنفا قد عاشت فى عزلة تامة متفرغة للفكر والكتابة وأنه ذاع عنها الطهر و الاستقامة ، وأن أهل التدين فى عصرهم أحاطوهم بالتبجيل والإعجاب ، حتى أن عزلتهم تلك انتهت فى خيالات هؤلاء المعاصرين إلى بلورة قصصهم على النحو الذى تناقله أحبار اليهود جيلا بعد جيل ، ومن ثم استخدمه القرآن كآلية قصصية يسوق من خلالها ما يريد من حق . وفى معظم قصص القرآن يقف أسد نفس الموقف معتبرا أن هذا القصص هو من الأمثال التى يضربها الله للناس ومن ثم فليس من الضرورة حدوثها تاريخيا أو ارتباطها بأشخاص بأعينهم أو بموقع فى المكان والزمان .

كما يرى أسد فى ترجمته أن انبهار الناس بنفر قدوة أو بشخصية زعيم أو نبى مرسل غالبا ما يدفعهم إلى نسج الأساطير حول هؤلاء النفر أو ذلك الشخص المبهر .

ومع مرور الزمن يضيف الخيال إلى هذه الأساطير ما يضيف . وفى رأينا : ليس فى هذا من حرج . تلك سنة المجتمعات فى بناء نسيجها الثقافى والقيمى . ولكن الحرج كل الحرج أن يزعم أسد أن القرآن فى قصصه كثيرا ما يستخدم هذه الأساطير ليسوق من خلالها رسالته العقيدية والقيمية . فما حكى القرآن عن داود وسليمان حق لا ريب فيه ، وحوادثهم قد وقعت زمانا ومكانا . وما حكاه القرآن عن أصحاب الكهف والرقيم لا ريب فيه وقد حدث زمانا ومكانا ، وهذه عقيدتنا التى نؤمن بها وعليها نلقى الله .

ونحن بالطبع إذ نختلف مع أسد فى منهجه . . . لا نقلل بحال من الأحوال من الجهد الفائق العبقرى الذى بذله أسد فى ترجمته . فما أظن أمرأ وهب القرآن حياته مثلما فعل شيخنا أسد ، وهو إمام فى التفسير القرآنى بكل المقاييس ، ولقد وقع فى أخطاء كثيرة كما وقع غيره من الأئمة ، ولكنى لم أجد إنسانا خدم الفكر الإسلامى والقرآن الكريم فى زماننا المعاصر مثلما خدمه هذا الإمام الفذ . ولم أستفد من أى تفسير للقرآن قدر ما استفدت من تفسيره ومن حواشيه فرضى الله عنه وغفر له .

ونحن وإن كنا نؤمن بالوقوع التاريخى لأحداث قصص القرآن إلا أننا لسنا من المهتمين بالسعى وراء التاريخ زمانا «أو الجغرافيا مكانا» ، ولا تثريب على غيرنا أن يهتم بالتاريخ والجغرافيا ، ولكننا نبحث عن العبرة الحضارية فى هذا القصص ونستخلص منه ما ينفعنا فى دروبنا الحضارية المتعددة .

وسنحاول ما استطعنا أن نتتبع إشعاعات هذه القصة الحضارية ودروسها البالغة لأصحاب الدعوات الإصلاحية . . وعلى الله قصد السبيل .

الدروس الحضارية فى قصة أصحاب الكهف والرقيم .

طبيعة القصة :

مجموعة إصلاحية قليلة العدد اختلف الناس فى عددهم بين الثلاثة والسبعة . . فتية أمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى وربط على قلوبهم حين قرروا أن يقوموا بحركتهم الإصلاحية ضد عبادة

الآلهة المزيفة ، وبدءوا بأنفسهم حيث تحرروا من كل دعاء يدعو الناس بعيدًا عن الحق . إذا قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها . لقد قلنا إذا شططا . . . ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ .

والفتية وقومهم ليسوا على طرفى نقيض فلسفى فحسب وإنما على طرفى نقيض فى كل التوجهات الحياتية . فالقوم قد يتخذون آلهة فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد كما يتخذون آلهة متعددة فى العبادة .

والقوم ربما قالوا أنهم يعبدون إلها واحدا ، ولكنهم فى الواقع اتخذوا آلهة متعددة ، وهم غير قادرين أن يربطوا بين قولهم بالإله الواحد واتخاذهم هذه الآلهة المتعددة برباط منطقى مبين ، بل إنهم يزعمون بلا منطق أن ما اتخذوه من آلهة فى توجهاتهم الحياتية إنما هو الحق افتراء وكذبًا على الله .

وفى عصرنا قد نرى أقوامًا يحسنون سبك الكلام فى العقيدة والشريعة ، ولكنهم يتخذون من الجاه والمال والجنس آلهة ، لها يسجدون ومن أجلها يحيون ويموتون . فإذا جادلتهم لم تجد عندهم حجة واضحة ولا سلطانا مبينا .

ويهود القرآن كانوا يدّعون الإيمان بالإله الواحد ، ولكن ظاهرتهم فى القرآن تميزت بالافتراء على الله كذبًا فى كل ما يفعلون فهم يقتلون النبيين ويعبدون المال والجاه والجنس ويتخذون كل هذه آلهة من دون الله .

ولا يظنن إمرؤ أن هذه الظاهرة الشيطانية خاصة فقط بهؤلاء اليهود الذين عاشوا قبل الإسلام وأثناء تنزل القرآن ، فكل مجتمع إنسانى صارت أحواله إلى هذا السلوك الإنسانى فهو مجتمع يهودى قرآنى .

وكثير من المجتمعات الإسلامية فى تقلباتها المعاصرة هى مجتمعات يهودية قرآنية حتى لو حملت لواء الشريعة وأقسمت جهد إيمانها أنها مسلمة .

والفرعونية ظاهرة اجتماعية قرآنية تصف حال المجتمعات المقهورة وتصف علو الملأ الأعلى من الحكام الطغاة وكيف يستخفون بشعوبهم ويفرقونهم شيعًا وأحزابا ، يقربون طائفة ويفتكون بطائفة أخرى .

هذه الظاهرة الفرعونية ليست لصيقة بحكام مصر فى كل العصور وإنما كانت أبرز ما تكون فى حاكم ما فى تاريخ مصر فسميت باسمه ، ولكن الظاهرة متكررة فى كل الشعوب على مر الأزمان والدهور . والأخ الدكتور نجم الدين أربكان يظن أن لواء الفرعونية كحضارة وفكر قد عقد لأمريكا هذه الأيام . دعك مما تدّعيه افتراء وكذبًا على الله وانظر إلى طبيعة السلوك العدوانى والتوحش النفسى المادى عند هذه الحضارة أفرادا وجماعات ودولة .

نعود إلى طبيعة البيئة التى حدثت فيها قصة أصحاب الكهف والرقيم فتؤكد أن البيئة بيئة نفاقية . . يتخذون آلهة فى الحياة تناقض ما يدعون من قيم وما يزعمون لأنفسهم من فضل ، وفى هذا الجو النفاقى قامت حركة إصلاحية صغيرة من مجموعة من الإصلاحيين تحمل معها رقيمًا إصلاحيا ، أى تحمل مخططًا إصلاحيا .

والمخطط يدل على أنها حركة فكرت وقدرت فيما تريده من إصلاح ، وليست حركة هوجائية لا تعرف ماذا تريد ولا كيف تصلح . إنها حركة واعية لواقع الأمة شاهدة عليه تعرف خيره وشره ، حركة تحمل مخططًا أو قل برنامجًا إصلاحيا مكتوبا ومفصلا وذا سلطان مبين . وهم يعيبون على قومهم هذا «الغيم» السلوكى الذى يعيشون فيه فهم لا يأتون على مايعبدون بسلطان بين ، ولكنه الغيم السلوكى الذى يتستر به كل المنحرفون سواء فى عالم السياسة أو عالم الاجتماع أو عالم الاقتصاد .

وأصحابنا الكهفيون يحملون رقيمًا ذا سلطان بين وليس فكرا غائما ملبدا ، مثل كثير من الفكر الغائم الذى تحمله جماعات متعددة فى حياتنا هذه الأيام .

فالرقيم إذن مخطط إصلاحى شديد الوضوح قوى الحجة . . أو قل بأسلوب القرآن : رقيم ذا سلطان بين . والمواجهة الآن هى بين نفر قليلين (بين الثلاثة والسبعة) وبين مجتمع طاغوتى ضال لا يسمح مطلقا بالتغيير الإصلاحى ولا يعطى خيارا لفرجة إصلاحية . شعاره «إما الذوبان فى الضلال العام أو الموت الزؤام» ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ .

الاعتزال والبحث عن كهف مناسب:

والاعتزال هنا يعنى اعتزال هذه المواجهة الغير متكافئة بين هؤلاء النفر القليلين من الإصلاحيين وبين المجتمع الطاغى الكفور والبحث عن طريق أخر أكثرا لطفا وأشد سترا . مع المحافظة على

الاعتزال طريق القوم وما يدعون من دون الله . ولا يظنن أحد أن هذا الاعزال هو هروب من مسئوليات الجماعة الإصلاحية أو هو من قبيل «التولى يوم الزحف» . . . كلا . . . وإنما هو بحث عن طريق أكثر رشدا يتيح للجماعة الإصلاحية العمل الهادئ بعيدا عن تهيديدات الطغاة الذين لم يتركوا للإصلاحيين أية فرجة إصلاحية . ونتعلم من أصحاب الكهف والرقيم (من خلال دعائهم لربهم) أن مواصفات هذا الكهف أو هذا الطريق القاصد تتلخص فى أمرين : «الرحمة والعلم» .

أما الرحمة فهى خلاصة الدين كله والإصلاح كله وهى بضاعة كل الأنبياء ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وأما العلم فيتمثل فى «الرشد» فى اختيار الطريق القاصد أو الكهف المناسب للرقيم ، والرشد هو القدرة على الاختيار العالم الرحيم . . وعندما تتفرق أمامك السبل وأنت تبحث عن الطريق تدعو دائما بدعاء أهل الكهف وتتمثل حالهم :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ فإذا اطمئن قلبك إلى الطريق الراشد فلا تتردد وأوى إليه فإن الله تبارك وتعالى سوف يتكفل لك بالرحمة والمرفق . والمرفق هو كل ما يعينك على المضى فى طريقك الراشد . . . وأنت تسأل الله رحمة من «لدنه» وتدعوه أن يهيئ لك من «أمرك» رشدا . فالرحمة عطاء الله للقلوب والأرواح وهو عطاء لا يتعلق بإمكانياتك أنت ، أما الرشد وهو القدرة على الاختيار القاصد فيرتبط ارتباطا وثيقا بأمرك أنت أى بأحوالك كلها . سواء ما تعلق بظروفك المكانية والزمانية

أو ما يتعلق بإمكانياتك العقلية والعاطفية . فالرحمة قد يعطيها الله للأمى والعالم ، وقد يعطى منها الأمى أكثر من العالم . ولكن الرشد مرتبط بظروف كل منهما ، ولابد من تهيئته من أمرهم . فلا نكلف فلاحا مصريا مهمة إصلاح الزراعة فى الهند ولا نسأل جزارا فى مصر أن يصلح حال التعليم فيها . وإنما ينبغى أن ترتبط المهمة الإصلاحية بإمكانيات الرجال ومجمل أحوالهم .

وما قلناه عن الرشد ينطبق على المرفق . فالمرفق دائما مرتبط بإمكانيات المصلحين ومجمل أحوالهم ، وما يرتفق به إنسان قد لا يستطيع إنسان آخر أن يرتفق به ، ولذلك فالذين يدعون ربهم أن يهيئ لهم من أمرهم رشدا ، هؤلاء يمنحهم الله الرشد ويمنحهم كذلك المرفق من أمرهم أى متناغما ومتوافقا مع مجمل أحوالهم .

وخلاصة القول إذا أن أى جماعة إصلاحية لابد أن تمتلك ثلاثة أمور :

الرحمة والرشد والمرفق

ولن تملك هذه الأمور إلا بالتجرد لله وبفهم التحدى الإصلاحى وبالقيام بالحركة المناسبة وبالثبات والبحث عن الطريق القاصد لمخططهم الإصلاحى .

أحوال الطريق أو الحياة فى الكهف الإصلاحى .

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧)

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ .

من الإشعاعات الحضارية لطلوع الشمس وغروبها على المجتمعات فى القرآن الكريم معنى يتعلق بتهيئ هذه المجتمعات للتلقى القيمى أو برفضها لهذا التلقى .

فإذا تهيأت ظروف المجتمع الحضارية الحضارية لهذا التلقى ... أى طلعت شمس القيم فى هذا المجتمع ، فإن ذلك يضيف إلى أصحاب الكهف قوى خيرية (ذات اليمين) ، وإذا غامت شمس القيم المحرضة على الخير فى المجتمع فإن ذلك من شأنه أن يعوق جهد أهل الكهف ويقوى من القوى المناهضة للخير (ذات الشمال) ، وفى كل الأحوال تبقى هناك «فسحة حضارية» أمام أهل الكهف والرقيم ليواصلوا من خلالها جهدهم ... وهم دائما يملكون هذه الفسحة الحضارية للعمل الإصلاحى (وهم فى فجوة منه) .

ثم إنهم غير مسئولين عن نتائج أعمالهم .. اهتدى الناس أم ضلوا . فإن من آيات الله وسننه أن الله يهدى الناس بأعمالهم ويضلهم بأعمالهم ومن يضلل فلن تجد له من دون الله وليا ولا مرشدا من أهل الأرض .

فأصحاب الرسالات لا يملكون أن يهدوا ضالا أو يضلوا مهتديا ، إنما مهمتهم تبليغ الرسالات فحسب ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ .

ثم إن أهل الكهف والرقيم وهم فى فسحتهم الحضارية يجاهدون يمدهم ربهم بثلاثة جنود من جنوده . . ولايعلم جنود ربك إلا هو . . . :

* يقظة متوهمة

* تقليب ربانى ذات اليمين وذات الشمال .

* وحراسة أمينة وفية توصد بابهم دون المتربصين .

والناس معهم فريقان :

* فريق المتربصين الطاغين .

* وفريق الطيبين التائهين .

وتلعب هذه اليقظة المتوهمة وهذا التقلب الربانى وتلك الحراسة الوفية دورين مختلفين بالنسبة لكلا الفريقين . أما تجاه المتربصين الطاغين ، فإن أهل الكهف وهم فى كهفهم يجاهدون يمنعهم رب العباد من هؤلاء المتربصين فلا يبطشون بهم ، ويلقى الله فى روع هؤلاء المتربصين أنهم أيقاظ ذو قوة وحركة وليسوا ضعفاء فى رقود ، ويقلبهم فى أعمال ونشاطات فى كل اتجاه حتى يبدو لهؤلاء المتربصين أنهم ذو حركة ممتدة وأن بابهم قد استغلق عليهم بحارس أمين وفى . . . أغلق دون هؤلاء المتربصين عتبة كهفهم (وصيد الكهف) فلا يستطيعون له ولوجا .

ومن هذا القبيل ما حدث يوم بدر . . إذ يقلل الله المشركين فى أعين المؤمنين ويكثر المؤمنين فى أعين المشركين ، فيغرى المؤمنين

بالقتال ويفت من عزيمة المشركين . ومن هذا القبيل ما حدث يوم الأحزاب ، وبالرغم من المحنة العظيمة التى كان يعيشها المؤمنون من خلف الخندق . . إذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظن المؤمنون بربهم الظنونا .

فى هذا الجو الشديد الوطأة على المؤمنين يسلم نعيم بن مسعود سرًا ويسعى بالوقيعة بين أحزاب الكفر (فالحرب خدعة) وتأتى ريح شديدة تعصف بمعسكر الكفر كله تقلب قدورهم وتقتلع خيامهم ، ويظن أبو سفيان زعيم أهل الكفر حينئذ أن وراء الأمر ما وراءه فيعلن لحلفائه أنه راحل فمن شاء فليرتحل . . ظنا منهم أن قوة لا قبل لهم بها قد جاءت بمدد لمحمد وأصحابه . ولو قسنا الأمر يومها بمقاييس القوة والمنعة الدنيوية لرأينا أصحابنا رقودًا ضعفًا وحصارًا وليس كما حسبهم معكسر الكفر أيقاظًا قوة وانتصارًا . وأصحاب الدعوات الإصلاحية لا يملكون أن يمنعوا أنفسهم إلا بقدر طاقتهم ولكن السماء تخلق هذه المنعة بالمشيئة المطلقة تخلقها غفلة عند المتربصين وغشاوة على عيونهم فهم لا يبصرون ، وتخلقها رعبًا فى القلوب وفزعًا من الملاقاة ، ويقول المصطفى ﷺ : «نصرت بالرعب بضعة أشهر» .

أما أهل الفريق الثانى : الطيبين التائهين ، فإن أهداف هذا التقليب الربانى ذات اليمين وذات الشمال أن يتعرف الصالحون من الناس على هذا الرقيم وما يحمله من أفكار وعلى هؤلاء النفر القدوة . . . هؤلاء الذين ترجموا رقيمهم حركة وسلوكا وأخلاقا تمشى على الأرض .

أحيانا أشعر أن الهجوم العلماني (الباحث عن الحق) على الفكر الإسلامي هجوم له فوائد كثيرة ، وأشعر أنه في غياب مثل هذه المواجهة ما كان للفكر الإسلامي أن ينضج ، ولظل راكدًا في عقول راكدة ، فمن سنن الله في الكون أن تتدافع الأفكار والعقائد ليميز الله الخبيث منها من الطيب . فالتجاوز الفكري من سنن المجتمعات في تقلبها ذات اليمين وذات الشمال . . إلا أن يكون شططًا يذهب بالاستقرار الديناميكي الراشد للمجتمعات . ونحن في العلوم الديناميكية المادية نسمح بقدر محسوب من التجاوز في الأداء من أجل الإسراع في الاستجابة شريطة ألا يصل هذا التجاوز إلى مرحلة الشطط الذي نفقد عندها القدرة على التحكم في النظام .

كما أن اليقظة المتوهمة تجمع التائهين الراغبين في الإصلاح والباحثين عن لواء ينضمون تحته . . تجمعهم نصرة لأصحاب هذا الكهف وهذا الرقيم . . فيزيدون هذا الكهف منعة ويلتفون حوله حماية وحراسة .

وكما أن اليقظة المتوهمة والتقليب الرباني والحماية المبسوطة ترعب المتربصين الطاغين وتفزعهم فرارًا ، فإنها في الجانب الآخر تملأ قلوب الصالحين التائهين حبًا وخشوعا . فلقد نقل أسد في ترجمته عن كثير من المفسرين (الرازيّ - الطبريّ - ابن كثير - البيضاويّ) في تأويل هذا الفرار وذلك الرعب أن أي عابر سبيل بهم إذ يراهم على حالهم (من اليقظة المتوهمة والتقليب الرباني والحراسة الوفية الحامية) يشعر للفور بإشعاع روحي مهيب يحيط

بهم ويدرك للتو أنه أمام مجموعة مختارة من عباد الله الصالحين .

[An accidental out-looker would immediately have felt the mystic awe-inspiring aura that surround the men of the cave and would have become conscious that he stood before God's elect.]

لكل عملية حضارية «لبث معلوم» : ◆

وتعلمنا قصة أصحاب الكهف والرقيم أن لكل عملية حضارية لبث معلوم ، وأن الله جعل لكل شيء أجلاً مكتوبًا ، وأن هذا من سنن الكون التي لا تتبدل ، والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) ﴾ وفى حياتنا المادية كل عملية طبيعية لها لبث معلوم . وعلماء التحكم يدرسون ديناميكية كل عملية طبيعية ولبثها الطبيعى فى استجابتها لمؤثرات خارجية ، ودراسة لبث العمليات الحضارية أمر بالغ الأهمية . ذلك أن معظم المتعرضين للعمليات الإصلاحية فى بلادنا يريدون أن يبذروا اليوم ويجنوا فى الحال إن لم يكن بالأمس . . !! وأصحابنا - أصحاب الكهف والرقيم - لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازداودا تسعًا . . . ذلك لبث عمليتهم الحضارية ، وعندما طابت الثمرة واكتملت عمليتهم الحضارية ، وأكرمهم الله بالبعث . . قاموا يتساءلون في إنكار للوقت والجهد يليق بهؤلاء النفر القدوة ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ . . . ﴾ واللام فى قوله تعالى

«ليتساءلوا» هى لام العاقبة وليست لام السببية . وهذا إيحاء جميل لأصحاب الدعوات الإصلاحية فلا تعلم يمينه ما أنفقت شماله .. ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا وهذا النفر الكريم المؤمن يراها يومًا أو بعض يوم . هذا الفناء فى العمل الإصلاحى والانقطاع التام له ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ والتبتل والإحسان ألغى فكرة الزمن من أفئدتهم ، تمامًا كما يحدث فى الحياة المادية عندما يركب الإنسان مركبة تسير بسرعة تقارب سرعة الضوء فإن كل ساعاته البيولوجية تتوقف أو تكاد (وهذه نتيجة من نظرية النسبية لأينشتاين) . هل نقول : إن إصحابنا ركبوا فى رحلتهم الحضارية مركبًا من نور الله أضاء بصائرهم فما أحسوا زمانًا أو مكانًا . وما بال هؤلاء المتعجلين لثمرات عملهم الكليل يريدون أن يغيروا سنن الله فى التحويل والتبديل ولن تجد لسنة الله تحويلاً ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ومن المعانى الرقيقة الشفافة التى تشع من قصة أصحاب الكهف والرقيم أن أصحاب الرسالات الإصلاحية من شدة فنائهم فى مهمتهم لا يشعرون بالثمرات من حولهم ولا يحسون بالإنجاز الضخم الذى حققوه . ففى قصتهم أسلمت المدينة لربها وأصحابنا لا يشعرون ، وإنهم ليوصون صاحبهم الذى أرسلوه ليشترى لهم طعامًا زكيًا أن يتلطف ولا يشعرن بهم أحدًا .

﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ .

فالمصلح الذى يستكثر إنجازه ويستعظم ما حققه سرعان ما يتوقف . أما الذى يظن أنه ما أعطى وما أنجز وكانت له نفس تواقة فإنه سيظل دافق العطاء بلا توقف ، كما أنه لن يمن على قومه الذين يبغى إصلاحهم بعطائه ، وسيدفع ثمن طعامه وشرابه متلطفًا فى الأمر كله . أما الذين يمنون ليستكثروا . . . أى يمنون بعطائهم ليستكثروا من الأجر ، فهؤلاء لا يصلحون ، والله تبارك وتعالى يقول لنبيه الكريم : ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ .

كيف ندرس التاريخ :

أشعر فى كثير من الأحيان أننا فى حاجة إلى ثورة منهجية فى عملية كتابة التاريخ . وأشعر كذلك أن معظم مؤرخينا اهتموا كثيرًا بتاريخ الفتن فى بلاط الحكام أكثر مما اهتموا بحركة المجتمعات الإسلامية فى نموها الحضارى أو فى انحطاطها الحديث وطبيعة هذه الحركة وخصائصها .

فى قصة أصحاب الكهف والرقيم يعلمنا القرآن هذا المنهج المرجو . إن أعظم ما تحمله هذه القصة للأجيال الإصلاحية جيلاً بعد جيل هى فكرة «اللبث الحضارى» والقرآن يقول : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ وينقل أسد فى ترجمته عن «تاج العروس» أن الفعل أحصى يأتى بمعان عدة مثل العد ومثل الفهم ومثل الإدراك . ومن ثم فإن إدراك هذا اللبث الحضارى طبيعة وأمدًا هو فى رأينا من مقاصد القرآن فى هذا الرصد التاريخى .

والقرآن يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ .

وكل الأجيال الإصلاحية ، وقد أعثرها الله على قصة أصحاب الكهف والرقيم ، ينبغى أن تعلم أن وعد الله حق ، وأن تدرك طبيعة هذا الوعد وطبيعة تحققه فى حياتنا . . فهذه سنن ثابتة لا تتحول ولا تتبدل . والله يقص علينا فى كتابه قصص المصلحين لنخرج منها بالمنهج الراشد ولنرى كيف تحقق وعد الله فى هذه الأرض وكيف أحيى الله موات المجتمعات برسالات مصلحيها . . تمامًا كما ينزل الغيث على الأرض الميتة فيحييها .

ومن خلال هذا الفهم الراشد لطبائع السنن التى أودعها الله فى طبيعة المجتمعات يمكن أن نستخلص علوم التاريخ لتكون لنا عونًا فى فهم أنفسنا والتنبؤ بطبيعة التغيرات فينا . ولذلك يتحدث القرآن عن فريق من الناس لم يفهم لماذا أعثر الله الناس على أصحاب الكهف والرقيم ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ﴾ تمامًا كما ترك لنا الفراعنة مقابر وأهرامات لم نستطيع أن نخرج منها بعبر التاريخ وطبيعة حياة هؤلاء الفراعنة . . ﴿الله أعلم بهم﴾ .

ولكن الرأى الراجح ﴿ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ ﴾ كان لهؤلاء

الذين قالوا ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ . . والمسجد هو تعبير عن مجموع القيم الإصلاحية متمثلة فى رقيمهم وكذلك عن الكهف الذى آووا إليه . . . أو قل طبيعة الطريق الذى سلكوه والمنهج الإصلاحى الذى اتخذوه . ذلك ما ينبغى أن نذكره عن هؤلاء الفتية ، وذلك ما ينبغى أن نسميه تاريخًا . وعندما نحاول أن نستجمع السنن من دراسة التاريخ ينبغى أن لا نرجم بالغيب . فحسبنا فى استخراج السنن فى هذه القصة أن ندرك أنهم كانوا نفرًا قليلين لا يتجاوزون أصابع اليدين . . كانوا بهذه القلة فى مواجهة مجتمعهم الطاغى الكفور . ولا يهم فى هذا الأمر أن نبحث كم كان عددهم الأكيد . ذلك لن يغير من العبرة قليلاً أو كثيرًا ، ومن ثم ينبغى أن لا ننشغل به . . . فلا يجادل بعضنا البعض فى أمر غيبى لم يعثرنا الله عليه ويكفينا المعنى الظاهر الواضح من أن قلة لا تبلغ أصابع اليدين واجهت مجتمعًا بأكمله . . ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا . . ﴾ ذلك أن الغيب بطبيعته ليس موضوع افتاء ، فإن ادعى أحد الفتيا فى أمر تاريخى غيبى فإنه يخوض فيما لا علم له به .

ولك أن تتصور لو أننا التزمنا هذا المنهج فى التاريخ وسألنا أنفسنا عن كتب بأسرها رواها لنا الرواة وأفتوا فأكثروا فى الفتيا رجمًا بالغيب . . لو أعدنا قراءة التاريخ مرة أخرى . . فكل مؤرخ

يرجم بالغيب رجمناه ببضاعته رجمًا بعلم . . . لو أننا فعلنا ذلك لألقينا بمعظم كتب التاريخ فى المحارق ولن يبقى منها إلا النذر القليل .

انظر - رحمك الله - إلى كل هذا الرجم بالغيب فى تاريخنا الحديث فى المائة سنة الأخيرة ، رغم ما نملك من وسائل حديثة للحفظ والتوثيق ، وتأمل بعد ذلك ما ينبغى أن نفعله فى كثير من كتب تراثنا التاريخى . . . تلك الكتب التى كتبت معظم ما كتبت رجمًا بالغيب .

* * *

وبعد ، فأدعو الله العلى القدير أن أكون قد هدانى ربى صراطا مستقيما ، وأن تكون هذه التأملات فى قصة أصحاب الكهف والرقيم تأملات قد رشفت من نبع طهور يصلنا بالملأ الأعلى فيسقى الأرض بعد موتها ويبعثنا يقظة ونشورا .

* * *

قصة موسى والخضر عليهما السلام

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾

إن شئت أيها الأخ الكريم أن تتخذ عنوانًا للدرس الحضارى الذى تفيض به علينا هذه القصة فلن نجد أفضل من العنوان **(الرحمة والعلم)**

الرحمة هى الهدف فى كل سعى فى هذه الحياة الدنيا . .

والعلم هو الطريق والمنهاج الذى نتخذه فى سعينا الدءوب من أجل تحقيق هذه الرحمة . . . والرحمة والعلم هى بضاعة العبد الصالح صاحب موسى عليه السلام : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ .

والرحمة هى هدف كل رسالات السماء . . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . إن رسالتك أيها النبى بما تحمل من إيمان وتسليم لله تبارك وتعالى وإيمان بالغيب وإيمان بالقيم والموازين والشعائر والشرائع التى احتوتها هذه الرسالة سوف تأخذ بيد العالمين فى طريق الرحمة ، وسوف يؤدى تحقيق هذه الرسالة بالعلم بالمجتمعات والأفراد والشعوب إلى أن تحيا حياة طيبة تحيط بها الرحمة .

ومجمع البحرين . . بحر الرحمة وبحر العلم . . هو الهدف القاصد للأفراد والمجتمعات . وإن كان الخضر عليه السلام يقف على مجمع البحرين وذلك بفضل الله ورحمته فإن موسى عليه السلام - ونحن مثله - نحتاج إلى مجاهدة ومصابرة ومكابدة حتى نصل إلى مجمع البحرين فى كل عمل نعمله وفى كل قرار نتخذه .

وموسى عليه السلام يعلن فى إصرار ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ .

وكل مؤمن يعلن : سأظل أبحث وأبحث عن الطريق العالم

الذى يؤدى إلى تحقيق الرحمة ، وسأواصل بحثى ما بقيت لى حياة ، فإن اعترضت طريقى (صخرة) تهت عندها عن الطريق القاصد وتفرقت بى عندها السبل ، واكتشفت تيهى بعد حين ، فلن يمنعنى ذلك من العودة إلى النقطة التى تاه منى عندها الحل القاصد . . أعود مستغفرًا لأبحث عن الطريق العالم الذى يؤدى بى إلى تحقيق الرحمة ، بعد أن أجهدنى (النصب من السفر) فى طريق غير قاصد واشتدت بى الحاجة إلى التزود بما يصبرنى على وعثاء السفر . . . ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾ .

ولا يحسبن امرؤ عجول إننا نقول أن رحلة موسى والخضر عليهما السلام رحلة رمزية ، وإنما نقول ما قاله القرآن ونحن موقنون . ولكننا نحاول أن نستخلص دروسًا فى الحضارة : قيمًا حقة وموعظة بالغة وذكرى للمؤمنين . وهذا هو هدف القصص القرآنى كما جاء فى آخر سورة هود ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . . ﴾ وقد يجد غيرنا وجوهًا أخرى من الإعجاز . . . لا تثريب على فضل الله . . . يؤتى الحكمة من يشاء . . . والأفئدة الثابتة هى الأفئدة القادرة على أن تبحث عن الحلول الرحيمة لكل حدث فى الحياة . . . تبحث عنه من خلال الحق المكنون فى قيم الدين وفى شرع الله ومن خلال الموعظة التى تحفز الروح وتستثير الوجدان ومن خلال الذكرى التى تضرب الأمثال للناس لعلهم يتفكرون .

فإن كان هذا منهجنا فى البحث فى هذه القصة فإن التراث

التفسيرى لها يركز على الرحلة واللقاء جغرافيًا ، وتبدأ معظم التفاسير من حديث الإمام البخارى (حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرنى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل . وقال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبى بن كعب - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : (أن موسى قام خطيبًا فى بنى إسرائيل ، فسأل أى الناس أعلم ؟ قال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه أن لى عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يارب وكيف لى به .. قال : تأخذ معك حوتًا فتجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ..) .
أما مجمع البحرين فاختلفوا فيه قالوا هما مما يلى المشرق وبحر الروم مما يلى المغرب وقالوا : عند طنجة فى المغرب وقال «سيد قطب» : بل لقاء البحر الأحمر والبحر الأبيض فى البحيرات المرة وبحيرة التمساح .

إن هذا الاهتمام الجغرافى عند المفسرين لا أحسبه من مقاصد القصص القرآنى : حقًا وموعظة وذكرى للمؤمنين .

وينقل محمد أسد فى رسالة القرآن رأى البيضاوى فى (مجمع البحرين) (مفسرًا إياه أنه التقاء بحرين من العلوم ، علوم يمكن الحصول عليها من خلال المشاهدة والاستنباط وهذه علوم (الظاهر) ، وعلوم لا تُحصَّلُ إلا من خلال الإلهام والاستغراق الروحى والتأمل ، وهذه هى علوم الباطن ويعلق أسد على كلمة

(الخضر) فيقول أنها لاتبدو اسمًا للعبد الصالح وإنما إشارة إلى أن حكمته دائمة التجدد (من الاخضرار الذى يوحى بالحياة والتجدد) ، وأن هذه الحكمة تمثل أقصى ما يحمله إنسان من النفاذ الروحى .

ونحن لا ننكر أن لله عبادًا اختصهم بدرجات من الإشراق الروحى والكشف .. اختصهم بذلك فضلاً منه ورحمة أو استجابة لمجاهدة نفسية وصبر متصل ، ولكن هؤلاء وأولئك ليسوا مادة للحديث بين الناس والتسبب بإنجازاتهم الروحية ، فشأن كل امرئ منهم بينه وبين ربه ، وربما ظهر لبعض الناس شىء من شئون هؤلاء المحظوظين ، وربما أدى ذلك إلى فتنه بهم . ولذلك كنا نجد بعض هؤلاء إذا أجرى الله على يده أمرًا وشعر بفتنة الناس سارع وفسر الأمور على نحو مادى بحت حتى لا ينصرف الناس فى حياتهم بحثًا عن أصحاب الخوارق ، وحتى يقطع الطريق على جيوش الدجالين الذين سيزعمون القدرة على الاتصال بعالم الغيب وفعل المعجزات بعيدًا عن عالم الأسباب .

ولذلك فنحن لا نذهب مع البيضاوى فى ظاهره وباطنه ، ولا نتتبع فيما فعله الخضر مع موسى باطنًا غيبيًا ، وإنما نرى ما ألحنا إليه من قبل من محاولة الإنسان في كل سعيه فى الحياة أن يجمع العلم والرحمة .. الرحمة هى الهدف والعلم هو الطريق .

وتحقيق رسالة الدين هو تحقيق الرحمة .. أو كما عبر عنها القرآن ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وكما قال رسول الله ﷺ : **(إنما أنا رحمة مهداة.)** ..

وإن أهم ملامح المنهج العلمى هو الاستغفار ، فالله وحده هو القادر على أن يخط الطريق مستقيمًا ، وهو الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى . ولكن الناس يحاولون فيخطئون ثم يحاولون ثانية وثالثة بطريقة استغفارية والاستغفار هو طريق النماء والحضارة .

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا .. ﴾

وموسى وفتاه بعد أن تجاوزا الصخرة وأحسا بالنصب والجوع من وعثاء الطريق عادا أدراجهما إلى النقطة التى تجاوزا عندها القصد . . . عادا إلى مجمع البحرين . . فى إشارة جميلة إلى المنهج الاستغفارى . . ذلك المنهج الذى يمثل الركيزة الأساسية للتقدم والتأخر فى حياة الشعوب . والشعوب المتقدمة اليوم شعوب مستغفرة ولكن مرجعية استغفارها مرجعية وضعية ، ونوح عليه السلام أرشدنا إلى مرجعية الرسالة فى عملية الاستغفار فقال ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ .. ﴾ ولم يقل استغفروا آلهة صنعتموها لأنفسكم فى شكل قيم مادية ومصالح مادية .

ورغم ذلك فإن الشعوب التى تستغفر خير من الشعوب التى فقدت كل مناهجها الاستغفارية فى السياسة والاقتصاد والاجتماع . . شعوب مثل شعوب الأمة الإسلامية اليوم .

ثم يتم اللقاء ، ويطلب موسى من الخضر أن يتتلمذ على يديه

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فموسى لا يطلب نصيحة أو موعظة ثم يمضى ، إنه يريد أن يتبعه فى تجاربه ليتعلم منطقه الراشد فى تأويل الأحداث . فهى ليست دراسة نظرية وإنما هى تجارب وأحداث تحتاج إلى تتبع وانقطاع وصبر وخبرة . والخضر عليه السلام ينظر إلى موسى وتكوينه وخبرته فيقطع بأن هذا الطالب لن يستطيع صبرًا على هذه التجربة المعرفية .

إن تأويل الأحاديث فى ميدان من ميادين الحياة أمر يحتاج إلى تراكم خبرات واستنباط سنن ، وهذا لن يحدث إلا بالمعايشة والتجربة والخطأ والصبر الطويل . انظر إلى يوسف عليه السلام . . طفل يرى رؤيا فيهرع إلى أبيه يقص عليه رؤياه . فيقول له أبوه الذى يشعر أن ولده سوف يعظم شأنه : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ .

وعندما يدخل يوسف بيت عزيز مصر الذى يقول لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾ .

فيوسف عليه السلام اجتباه ربه ومكن له فى الأرض . . فى بيت عزيز مصر حيث يعيش فى بوتقة الحكم يجمع الخبرات ويراكمها فى صدره ويزداد كل يوم خبرة ، ويدخل فى محن وتجارب ، حتى تتهيأ له الظروف وتحتاجه البلاد فيتقدم بخبرته المتراكمة فى المجال التنموى وينقذ مصر من كارثة المجاعة ويتبوأ مكانًا عليًا فى قمة الحكم فيهتف قلبه الخاشع بالشكر لمولاه .
﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

ولا يحسبن امرؤ أن تأويل الأحاديث يتلخص فى القدرة على تفسير الأحلام . . ذلك جزء يسير ، ولكن تأويل الأحاديث هو القدرة على قراءة الأحداث الجديدة قراءة سليمة حتى يتسنى اتخاذ القرار المناسب الذى يقوم على هذه القراءة . ويوسف يتعلم (من) تأويل الأحاديث لأن التأويل الكامل لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى . إن هذا الرأى فى معنى من ﴿ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ هو ما ذهب إليه محمد أسد فى ترجمته نقلاً عن الإمام الرازى :
[We will impart unto thee some understanding of the inner meaning of happenings]

ومن اللحظة الأولى فى لقاء موسى والخضر نتعلم درسًا حضاريًا بالغًا فى حياة الأمم : (إن الذين سيصبرون على مواجهة الأحداث فى ميدان ما وتأويلها لابد أن يكونوا من ذوى الخبرات المتراكمة

فى هذا الميدان . . الذين استطاعوا أن يستنبطوا السنن الحاكمة لحركة الأحداث ومن ثم أصبحوا قادرين على تقديم الحلول الراشدة . . .)

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾

والأمم المتقدمة تحرص على تكوين هذه الطبقات الحاكمة طبقة من بعد طبقة وذلك من خلال التعليم والعمل الاجتماعى وتكوين الجماعات الإصلاحية والجماعات التنموية ، ومن خلال الحركة فى المجتمع أفقيًا ورأسيًا ، ومن خلال شفافية النظام وحرية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . من خلال هذا كله تتكون الخبرات وتتهيأ المهارات ولا يشكو المجتمع حينئذ من قلة الرجال .

ونعود إلى موسى والخضر وإلى شروط التعاقد للرحلة التعليمية لهما .

من ناحية موسى : قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ الصبر والطاعة هذا ما يعده موسى . . وياليته وَفَّى . . إذا لتعلمنا معه على يد الخضر ما شاء الله لنا أن نتعلم !!

ويضيف الخضر شرطًا تعاقديًا آخر ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ . . أى أنه يشترط أن لكل سؤال وقتا مناسبا . . . من حق التلميذ السؤال ولكن

ينبغى أن يتم ذلك فى الوقت المناسب والطريقة المناسبة ، والأستاذ هو الذى يحدد الوقت والطريقة . فالدروس التى سيعلمها الخضر لموسى دروسًا عملية وليست شقشقة كلامية ، وقد يكون الخضر فى قلب العمل فيسأل موسى فيفسد العمل الذى قد يحتاج إلى عدم لفت الانتباه إليه . إن الخضر قد يمثل الدولة وموسى قد يمثل الشعب وقد تستدعى الأمور أن تقوم الدولة بعمل تمويهى تصرف به أعداء يتربصون بها عن مكامن القوة فى الأمة ، فإذا ارتفعت أصوات الشعب تسأل وتسأل تريد أن تعرف المكنون أثناء العمل التمويهى فربما أفسدت على الدولة خطتها وأحبطتها . من حق الشعب على الدولة أن يعرف ومن واجب الدولة أن تجيب ولكن من حقها أن تختار الوقت المناسب وبالطريقه المناسبة ولعل هذا ما يعنيه التعبير فى «إحداث الذكر من الشىء» فى الآية الكريمة إشارة إلى الطريقة المناسبة لتفسير الأحداث للشعب السائل .

وتبدأ رحلة موسى مع الخضر لنشاهد فى خلالها ثلاثة أحداث :

حدث سياسى وحدث اجتماعى وحدث تنموى.

الخضر السياسى:◆

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ .

مساكين يعملون فى البحر .. لا ينهبون ولا يسرقون .. وعملهم بالكاد يكفيهم وبدونها يفقدون مصدر رزقهم من الجذور ، فهذا الملك لا يأخذ جزءاً من فائض إنتاجهم وإنما يريد أن يأخذ

مصدر الإنتاج نفسه . . السفينة . . وأمَّن هذا الذى يركب البحر بغير سفينة . . . ؟ هو الضياع الكامل لهؤلاء المساكين لا محالة إن لحقهم هذا الملك الجبار . فكيف يتفلت الخضر من هذا الحصار؟ . . . وكيف ينجو بالسفينة بأقل خسائر ممكنة ؟ . .

وهنا يعلمنا الخضر ماذا نفعل . . نخرق السفينة خرقًا ظاهره التلف وباطنه الرحمة . . خرقًا يصرف الملك الجبار عن أخذ السفينة ، ولكنه خرق يمكن إصلاحه فيما بعد بإمكانيات هؤلاء المساكين . حلٌ فيه ضرر لهؤلاء المساكين ولكنه ضرر أقل بكثير من ضياع السفينة وهلاك مصدر الرزق . موازنة سياسية دقيقة ، تحسب فيه الخسائر والمكاسب بعناية بالغة ، ويتخذ القرار من ثم لتحقيق مكاسب الجماعة الخيرية ، أو قل تحقيق الرحمة بعباد الله المساكين .

فى عالم السياسة أرى خروقًا طبيعية فى مجتمعاتنا ، خروقًا تصرف عنا الملك الجبار المتربص بناء فأهتف فى داخلى : هذه **«خروق الرحمة» «خروق حضارية»** .

وواجب السياسى هو أن «يصمم» مجموعة من «الخروق» ليصرف بها الملك الجبار عن سفينته ، أو يستغل بعض الخروق الطبيعية ويزخرفها ويظهرها بغية التفلت من الحصار الذى بفرضه النظام الظالم فى العالم . ولابد أن يكون ذلك منهج كل الجماعات الإصلاحية فى الأمة ، فلا تظهر قوتها بشكل يؤلب عليها قوى الشر فى الداخل و الخارج . . إلا أن يكون إظهار القوة سيضيف إلى الأمة قوة من بعد قوة . أما إن كان إظهار القوة رياءً

لهوى طاغ فى الأنفس فإن ذلك مما يعجل بالهزيمة والفشل . . . وينفع فى هذا المقام أن يحرص الأفراد وتحرص الجماعات والأمم على ترك زينة الظاهر إلا بعد إصلاح الباطن كما يقول أهل التصوف . . . بل إن منهج الخضر يستدعى فى حالة الخطر أن تصمم الجماعات والأمم المسكينة مجموعة من الخروق الظاهرة تتفلت بها من حصار المستكبرين . . . وأن تصمم هذه الخروق بإبداع يؤدى إلى تعظيم المكاسب وتقليل الخسائر . إن إعداد النفوس والعقول للعمل بمنهج الخضر السياسى أمر بالغ الصعوبة(١) ، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو

---

(١)أسأل نفسى أحيانًا : هل الاندفاع الوطنى فى العمل النقابى فى أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات وظهور القدرة الوطنية على الارتفاع بهذا العمل إلى درجة رفيعة من الأداء . . . هل كان ذلك كله سببًا مباشرًا فى لفت أنظار الملك الجبار فى الخارج وتحريضه علينا حتى اضطرت الحكومة لإغلاق نقابة عظيمة كنقابة المهندسين ؟

وهل كان ينبغى أن نخرق فى سفينتنا خرقًا ؟

وما هو طبيعة هذا الخرق وكيف ننفذه بإبداع ؟

وهل الإغلاق الذى قامت به الدولة هو خرق أم مصيبة ؟ . .

وهل خرقتها لتغرق أهلها أو لتتفلت من الملك الجبار فى الخارج؟

وأسأل نفسى أحيانًا : هل هذه الضربات المتتالية لرموز التيار الإسلامى وقادة العمل الحركى الإسلامى . . هل هذه الضربات من قبيل الخرق بغية التفلت أم بغية الإغراق ؟ . . وهل تسأل الحكومة نفسها عن نيتها من هذا العمل ؟ . . أم أنها حكومة بلا نية لأن النية محلها القلب وهى فاقدة القلب ؟

وأسأل نفسى أحيانًا : هل وزارة الثقافة فى مصر هى خرق صممته الدولة لتتفلت به من الاستعمار ؟ . . إذ لا يمكن أن أفهم وزارة تحتفل بذكرى الاستعمار إلا على سبيل الخرق . . . كذلك لا يمكننى أن أفهم أن تحشد الوزارة ٣٩ «رأس» أستاذ دكتور على مدى يومين ليناقشوا كتاب طه حسين فى الشعر الجاهلى ليستخرجوا منه الدرر السنية إلا على سبيل الخرق .

وإذا كان ذلك كذلك فلماذا نسميها وزارة الثقافة بل نسميها «وزارة الخرق» .

الحكومات . بل إن السائد هو عكس هذا المنهج . والأمر يحتاج إلى إعداد الأفراد نفسيًا على سلوكيات رفيعة تبدأ من تدريب النفس على ترك زينة الظاهره إلا بعد إصلاح الباطن ، أما الأفراد الذين يتزينون بزى الأقوياء وهم ضعفاء ، ويتَخَشّعون وليس فى قلوبهم ذرة خشوع . . هؤلاء لا يمكن تدريبهم على منهج الخضر فى «الخروق الحضارية» والتى تستدعى خشوعًا نفسيًا يقبل بفكرة الضعف الظاهرى من أجل حماية القوة الباطنة ، ويقبل بالفر من أجل الكر . . . وفى جميع الأحوال . . فى الفر والكر . . تحيط بالإنسان ربانية غامرة وخشوع دائم . . هاتفا مثل الخضر . . ﴿وما فعلته عن أمرى . . .﴾

الخضر الاجتماعى :◆

﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ .

وأنا أورد ترجمة أسد والتى أتفق معه فى معانيها :

[And as for that young man, his parents were [true] believers-whereas we had every reason to fear that he would bring bitter grief upon them by [his] overweening wickedness and denial of all truth. And so we desired that their sustainer grant them in his stead [a child] of greater purity than him, and closer [to them] in loving tenderness].

وتأويل أسد يفسر الخشية عند الخضر «بالخوف المسبب» نتيجة لما ظهر من سلوك هذا الغلام وليس لفراسة صوفية لا يعضدها أى سلوك لهذا الغلام . وأسد ينقل هذا المعنى للخشية من كتاب تاج العروس لمرتضى الزبيدى ، والذى أشار إلى هذه الآية فى تفسيره لمعنى كلمة الخشية . والله يقول أيضًا : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماءُ . . .﴾ فالخشية هنا مرتبطة بالعلم ، ولذلك فإننا نذهب مع أسد فى أن الغلام شاب يافع وليس طفلاً لم يبلغ الحلم كما يقول بعض المفسرين ، وأنه قد بدا من أفعاله وأقواله طغيان وكفر أصاب أبويه فربما تحملاه ، ورأى الخضر أن هذا الطغيان والكفر يزداد يومًا بعد يوم ، وأنه إن تركه على هذه الحال فإن الإرهاق الطاغى الكفور سوف يملأ حياتهما بالكدر والجحود والغلظة ورأى أن يقتلع هذا الطغيان الكفور من جذوره لتنبت مكانه شجرة تورف بظلالها الطاهرة على الوالدين وتكون أكثر طهرًا وأقرب رحما . . .

والخضر يعلمنا فى هذه الحادثة أن المجتمع المؤمن لابد أن تسود فيه الطهارة و التراحم . وعلى هذا فإن هذا المجتمع مطالب بمتابعة دقيقة لتجاربه الحياتية . . كل تجربة تبدو أنها تؤدى إلى فقدان الطهارة والتراحم لابد أن يوقفها ويعمل على إيداع تجارب أخرى من شأنها أن تؤدى إلى الطهارة والتراحم ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ .

والتجارب على اختلاف أنواعها - سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية - ربما تؤدى فى مردودها الاجتماعى إلى تحطيم أواصر المودة فى المجتمع وإلى شيوع الفاحشة . والمجتمع فى

سعيه الحياتى ربما صمم منظومة اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية ولا يبدو عند لحظة التصميم ما يمكن أن تؤدى إليه من فاحشة وطغيان كفور ، ولكن إذا بدا ذلك بعد حين ، وظهر جليًا أن التجربة إن استمرت سوف تؤدى إلى شيوع الفاحشة وتحطيم الأواصر الرحيمة بين الناس ، فإن من واجب المجتمع أن يسارع بإعادة النظر فى التجربة واستحداث تجارب أخرى تكون خيرًا منها زكاة وأقرب رحما . .

فى الجامعات الغربية وفى السنوات العشرين الأخيرة بدأ الاهتمام الشديد بتأثير التكنولوجيا على العادات والتقاليد والأواصر الاجتماعية . ولكن لأن التكنولوجيا هى الغاية وليست الطهارة أو الأواصر الرحيمة بين الناس فإن نتائج هذه الدراسات لا تؤدى إلى مراجعة أو تغيير لهذه الأنماط التكنولوجية ، وتزداد الأسرة تفككًا وتشيع الفاحشة بكل ألوانها ويزهق التراحم الأسرى- والذى هو أساس التراحم الاجتماعى - ويصبح المجتمع أفرادًا عند السيد التكنولوجى الكبير .

وينبغى علينا - نحن تلامذة الخضر - أن نبدع هذه العلوم الجديدة التى تدرس نوعية الحياة الاجتماعية التى تخرج من باطن نظمنا جميعًا . والغاية عندنا واضحة : مجتمع رحيم طهور . هذا هو المقياس الذى نقيس به كل سعينا فى الحياة ، فإن رأينا فى سعينا ما يؤدى إلى هذا المجتمع الرحيم الطهور مضينا قدمًا . وإلا رجعنا على آثارنا قصصا . . نبحث عن سعى جديد يكون خيرًا من القديم زكاة وأقرب رحما . . .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

هذا درس فى فلسفة التنمية الاقتصادية بالغ الأهمية . إن الكنوز التى يملكها شعب ضعيف غير قادر على استغلالها استغلالاً راشدًا سرعان ما تتداعى عليها الذئاب كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . . ولا يمضى وقت حتى تكون قد نهبت فلا يبقى للأجيال اللاحقة شىء منها . إن الشركات الاستعمارية تعمل ليل نهار على اكتشاف كنوزنا من الطاقة والمواد وهى تأخذها بأبخس الأثمان . هل يصدق أحد أن كل شىء يرتفع ثمنه إلا الطاقة ؟ . . وهل يصدق أحد أن الغرب اخترع ضريبة فرضها علينا اسمها ضريبة الكربون ؟ لأن بترولنا الذى يأخذه بأبخس الأثمان يسبب لهم عند استخدامه عوادم كربونية كثيرة تلوث البيئة!! . . إن من واجبات «**المجتمع الصالح**» أن ينمى قدرات أبنائه ويقوى عزائمهم ويشحذ هممهم ليبلغوا من القوة والبأس ما يستطيعون به استخراج كنوزهم وحماية أنفسهم . وحتى يبلغ هذه القوة وذلك البأس فأنه مطالب أن يتفلت قدر الإمكان من تعريض ثراوته للناهبين من كل جنس ، وأن يحاول أن يبنى عليها جدارًا من النسيان والتمويه ، وأن «يُقَوّمَ النفس الاجتماعية» التى تريد أن «تنقض» حتى تترف بلا جهد وتنعم بلا عمل . . ويقاتل فيها

هذه الإرادة المهلكة ، ويسعى لإكسابها المهارات القادرة على الاستغلال الأمثل للثروات استخراجًا واستخدامًا وحماية ، ليس فقط للأجيال الحالية وإنما أيضًا من أجل الأجيال التى ستأتى من بعد .

إن كنز الأرض الزراعية التى نملكها يفقد خصوبته نتيجة لما يترسب فى الأرض من مواد كيميائية صلبة نتيجة استخدامنا للمبيدات وللسماد الغير عضوى . بل أن عملية الضخ الغير راشد للمياه الجوفية فى بعض الأماكن الصحراوية قد تسبب فى ملوحة التربة ، وإفقادها خصوبتها . . . وضاع الكنز على الأجيال المستقبلية . والطاقة البترولية طاقة غير متجددة . . تنضب كل يوم وبسرعة هائلة . . فما تراكم فى جوف الأرض فى ملايين السنين ينفقه الإنسان السفيه فى أقل من مائتى سنة أى فى برهة من الزمن ولا يبدو فى الأفق القريب وجود طاقة بديلة يمكن استخدامها فى صيانة عالم أشياء هذه الحضارة المادية .

والخضر يعلمنا أن ننظر إلى المستقبل ، فلا نبدد كنزًا قبل أن نبلغ أشدنا فنعرف كيف نستخرج الخير من هذا الكنز وكيف نستخدمه برشد وكيف نحميه ، ونفعل ذلك كله بعد أن نبلغ أشدنا علمًا وحكمة .

وبعد فما سقناه من دروس حضارية تدفقت من هذه الرحلة المباركة مع موسى والخضر عليهما السلام لا تحيط بكل الوجوه التى يمكن أن يمن الله بها على أولى الألباب . .

فـ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ .

ونعود فنؤكد أن الرحلة كما وصفها القرآن ليست خيالاً أو رمزًا ، وإنما هي من الحقائق الكونية التى تجرى بإذن الله ومشيئته ، وأن لله عباداً اختصهم من لدنه بالعلم وبالرحمة السابغة ، وأجرى على أيديهم وما يزال يجرى معجزات لا تخضع لتصوراتنا وإمكاناتنا المادى . . لا ينكر ذلك إلا من يريد أن يفرض عقله القاصر على ملكوت السماوات والأرض . ومع هذا الإيمان فإننا نعتبر ذلك من التجارب الخاصة للأفراد والجماعات فلا يمكن تخطيط فضل الله فهو وحده صاحب الفضل ، وأقصى ما نفعله أن نخطط لحياتنا بشرعة الذى شرعه ونتمثل القيم العظيمة التى بثها لنا فى ثنايا كتابه سواء كانت صريحة واضحة أو مستكنة فى أحشاء قصة أو مثل . طامعين فى فضله الذى يغدقه على من يشاء بغير حساب . . .

وهذا ما أفاضه المولى جل جلاله على عبده الفقير . .

***

حاكم مسلم اجتمعت عنده القوة المادية والقوة الروحية ومكَّنه الله فى الأرض وآتاه علم الوسائل التى يتخذها لتحقيق أهدافه العظيمة ، ووفَّقه الله فى اتباع هذه الوسائل ومنحه الهمة الحضارية ليضرب فى مشارق الأرض ومغاربها يقيم العدل ويضرب على أيدى الظالمين ويشجع المحسنين ويعزل البواتق الحضارية التى سوف تتمخض عن ميلاد حضارى جديد ويحمى المستضعفين ويقوى شوكتهم فى وجه التقلبات الضخمة المادية والروحية .

وهذه هى القصة الكاملة كما رواها القرآن : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي

الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ .

وقبل أن نزجى تأويلنا ينبغى أن نستجمع ما قاله السلف الصالح تفسيرا لهذه الآيات . ولقد أحسن صاحب الظلال عليه رحمة الله وهو يحاول أن يخرج بتأويل لهذه الآيات إذ نفض عن كاهله عبء التاريخ فلم يلتفت إلى ما ذهب إليه كثيرون عن من هو ذو القرنين : أهو الإسكندر الأكبر المقدونى الوثنى أم هو أحد ملوك حمير ، فالتاريخ - كما يقول - «مولود حديث العهد جدا بالقياس إلى عمر البشرية ، وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يعرف عنها شيئا ، فليس هو الذى يستفتى فيها!» ويقول أيضا «أن التاريخ - وإن وعى بعض هذه الأحداث - هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف .

ونحن نشهد فى زماننا هذا - الذى تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص - أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يروى على أوجه شتى ، وينظر إليه من زوايا مختلفة ، ويفسر تفسيرات متناقضة ، ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ ، مهما قيل بعد ذلك فى التمحيص والتدقيق ! .

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص ، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التى ارتضاها البشر ، قبل أن تنكره العقيدة التى تقرر أن القرآن هو القول الفصل ، وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن ، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمى على السواء . إنما هو مراء!!» .

رحم الله صاحب الظلال . . ولقد التزم بمنهجه هذا إلا قليلا . ذلك أنه لما تحدث عن يأجوج ومأجوج بحث عن التاريخ ووقع فى أسره . ولكن المشكلة الأكرب أنه وسائر المفسرين وقعوا جميعا فى «مجاهل الجغرافيا» وجاءونا بتأويل جغرافى لرحلة ذى القرنين ونحسب أن هذا التأويل الجغرافى لا يسبر غور هذه الآيات العظيمة ولا يحيط بمقاصدها العميقة ويقف عند السطح دون أن ينفذ إلى الأعماق الدرية .

وهاؤم تأويل صاحب الظلال عليه رحمة الله :

وتبدأ قصة ذى القرنين على النحو التالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا . . . ﴾

وقد ذكر محمد ابن اسحاق سبب نزول هذه السورة فقال : «حدثنى شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : «بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ماليس عندنا من علم الأنبياء . . فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول

الله - ﷺ - ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن . فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها . ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ماهو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم . . فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور . . . فأخبروهم بها . فجاءوا رسول الله - ﷺ - فقالوا : يامحمد أخبرنا . . فسألوه عما أمرهم به فقال لهم رسول - ﷺ - «أخبركم غدا عما سألتم عنه - ولم يستثن - فانصرفوا عنه . ومكث رسول الله - ﷺ - خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل عليه السلام ، حتى أرجف أهل مكة ؛ وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشىء عما سألناه عنه . وحتى أحزن رسول الله - ﷺ - مكث الوحى عنه ؛ وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل - عليه السلام - من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ماسألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف ، وقول الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن الروح . . ﴾ [الأسراء]

هذه رواية . . وقد وردت عن ابن عباس - رضي الله عنه - رواية أخرى فى سبب نزول آية الروح الخاصة ، ذكرها العوفى . وذلك أن اليهود قالوا : للنبى - ﷺ - : أخبرنا عن الروح . وكيف تعذب الروح التى فى الجسد وإنما الروح من الله ؟ ولم يكن نزل عليه شىء . فلم يحر إليهم شيئا . فأتاه جبريل فقال له قل ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ . . . إلى آخر الرواية .

ولتعدد الروايات فى أسباب النزول ، نؤثر أن نقف فى ظل النص القرآنى المستيقن . ومن هذا النص نعلم أنه كان هناك سؤال عن ذى القرنين . لا ندرى - على وجه التحقيق - من الذى سأله . والمعرفة به لا تزيد شيئا فى دلالة القصة . فلنواجه النص بلا زيادة .

إن النص لا يذكر شيئا عن شخصية ذى القرنين ولا عن زمانه أو مكانه . وهذه هى السمة المطردة فى قصص القرآن . فالتسجيل التاريخى ليس هو المقصود . وإنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة . والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان فى أغلب الأحيان .

والتاريخ المدون يعرف ملكا اسمه الإسكندر ذو القرنين . ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور فى القرآن . فالإسكندر الإغريقى كان وثنيا . وهذا الذى يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله موحد بالله معتقد بالبعث والآخرة .

ويقول أبو الريحان البيرونى المنجم فى كتاب : «الآثار الباقية عن القرون الخالية» إن ذا القرنين المذكور فى القرآن كان من حمير مستدلا باسمه . فملوك حمير كانوا يلقبون بذى . كذى نواس وذى يزن . وكان اسمه أبا بكر بن افريقش . وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومراكش وغيرها وبنى مدينة إفريقية فسميت القارة كلها باسمه . وسمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس .

وقد يكون هذا القول صحيحا . ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه . ذلك أنه لايمكن البحث فى التاريخ المدون عن ذى القرنين الذى يقص القرآن طرفا من سيرته ، شأنه شأن كثير من القصص الوارد فى القرآن كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم . فالتاريخ المدون حديث العهد جدا بالقياس إلى عمر البشرية . وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يعرف عنها شيئا . فليس هو الذى يستفتى فيها !

لقد سأل سائلون عن ذى القرنين . سألوا الرسول - ﷺ - فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته . وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن فى هذه السيرة . فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم . وقد وردت فى التفاسير أقوال كثيرة ، ولكنها لا تعتمد على يقين . وينبغى أن تؤخذ بحذر ، لما فيها من إسرائيليات وأساطير .

وقد سجل السياق القرآنى لذى القرنين ثلاث رحلات : واحدة إلى المغرب ، وواحدة إلى المشرق ، وواحدة إلى مكان بين السدين . . فلنتابع السياق فى هذه الرحلات الثلاث .

يبدأ الحديث عن ذى القرنين بشىء عنه :

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا .. ﴾

لقد مكن الله له فى الأرض ، فأعطاه سلطانا وطيد الدعائم ؛ ويسر له أسباب الحكم والفتح وأسباب البناء والعمران ، وأسباب السلطان والمتاع .. وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه فى هذه الحياة .

«فأتبع سببا». ومضى فى وجه مما هو ميسر له ، وسلك طريقه إلى المغرب .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

ومغرب الشمس هو المكان الذى يرى الرائى أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق . وهو يختلف بالنسبة للمواضع . فبعض المواضع يرى الرائى فيها الشمس تغرب خلف جبل . وفى بعض المواضع يرى أنها تغرب فى الماء كما فى المحيطات الواسعة والبحار . وفى بعض المواضع يرى أنها تغرب فى الرمال إذا كان فى الصحراء مكشوفة على مد البصر ...

والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة

على شاطئ المحيط الأطلسى - وكان يسمى بحر الظلمات ويظن أن اليابسة تنتهى عنده - فرأى الشمس تغرب فيه .

والأرجح أنه كان عند منصب أحد الأنهار . حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ . وتوجد البرك وكأنها عيون الماء .. فرأى الشمس تغرب هناك و ﴿ وجدها تغرب في عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ .. ولكن يتعذر علينا تحديد المكان ، لأن النص لا يحدده . وليس لنا مصدر آخر موثوق به نعتمد عليه فى تحديده . وكل قول غير هذا ليس مأمونا لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح .

وعند هذه العين الحمئة وجد ذو القرنين قوما : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ .

كيف قال الله هذا القول لذى القرنين ؟ أكان ذلك وحيا إليه أم إنه حكاية حال . إذ سلطه الله على القوم ، وترك له التصرف فى أمرهم فكأنما قيل له : دونك وإياهم . فإما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ؟ كلا القولين ممكن ، ولا مانع من فهم النص على هذا الوجه أو ذاك . والمهم أن ذا القرنين أعلن دستوره فى معاملة البلاد المفتوحة ، التى دان له أهلها وسلطه الله عليها .

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ .

أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوى وعقابه ، وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم فيعذبهم عذابا فظيعا «نكرا» لا نظير له فيما

يعرفه البشر . أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن ، والمعاملة الطيبة ، والتكريم والمعونة والتيسير .

وهذا هو دستور الحكم الصالح ينبغى أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم . والمعتدى الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء . . وحين يجد المحسن فى الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسنا ، ومكانا كريما وعونا وتيسيرا ؛ ويجد المعتدى جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة . . عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج . أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون فى الدولة ؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون . فعندئذ تتحول السلطة فى يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد . ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد .

ثم عاد ذو القرنين من رحلة المغرب إلى رحلة المشرق ، ممكنا له فى الأرض ، ميسرة له الأسباب :

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ .

وما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها . فالمقصود هو مطلعها من الأفق الشرقى فى عين الرائى . والقرآن لم يحدد المكان . ولكنه وصف طبيعته وحال القوم الذى وجدهم ذو القرنين هناك ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل

لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ . . أى أنها أرض مكشوفة ، لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار . فالشمس تطلع على القوم فيها حين تطلع بلا ساتر . . وهذا الوصف ينطبق على الصحارى والسهول الواسعة . فهو لا يحدد مكانا بعينه . وكل ما نرجحه أن المكان كان فى أقصى الشرق حيث يجد الرائى أن الشمس تطلع على هذه الأرض المستوية المكشوفة ، وقد يكون ذلك على شاطئ إفريقية الشرقى . وهناك احتمال لأن يكون المقصود بقوله : ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أنهم قوم عراة الأجسام لم يجعل لهم سترا من الشمس . .

ولقد أعلن ذو القرنين من قبل دستوره فى الحكم ، فلم يتكرر بيانه هنا ، ولا تصرفه فى حالة المشرق لأنه معروف من قبل . وقد علم الله كل ما لديه من أفكار واتجاهات .

ونقف هنا وقفة قصيرة أمام ظاهرة التناسق الفنى فى العرض . . فإن المشهد الذى يعرضه السياق هو مشهد مكشوف فى الطبيعة : الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر . وكذلك ضمير ذى القرنين ونواياه كلها مكشوفة لعلم الله . . على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ

يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ .

ونحن لا نستطيع أن نجزم بشىء عن المكان الذى بلغ إليه ذو القرنين ﴿ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ ولا ما هما هذان السدان . كل مايؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين ، أو بين سدين صناعيين . تفصلهما فجوة أو ممر . فوجد هناك قوما متخلفين : ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ .

وعندما وجدوه فاتحا قويا ، وتوسموا فيه القدرة والصلاح .. عرضوا عليه أن يقيم لهم سدا فى وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين ، ويغيرون عليهم من ذلك الممر ، فيعيثون فى أرضهم فسادا ؛ ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم . . وذلك فى مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم» .

وتبعا للمنهج الصالح الذى أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد فى الأرض فقد رد عليهم عرضهم الذى عرضوه من المال ؛ وتطوع بإقامة السد ؛ ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هى ردم

الممر بين الحاجزين الطبيعيين ؛ فطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية :﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ . . فجمعوا له قطع الحديد ، وكومها فى الفتحة بين الحاجزين ، فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ «وأصبح الركام بمساواة القمتين» ﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ على النار لتسخين الحديد ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾كله لشدة توهجه واحمراره قال : ﴿ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أى نحاسا مذابا يتخلل الحديد ، ويختلط به فيزيده صلابة .

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثا في تقوية الحديد ؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته . وكان هذا الذى هدى الله إليه ذا القرنين ، وسجله فى كتابه الخالد سبقا للعلم البشرى الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله .

بذلك التحم الحاجزان ، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ ويتسوروه ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ فينفذوا منه . وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف المتخلفين . فأمنوا واطمأنوا .

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذى قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم . ولكنه ذكر الله فشكره . ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه . وتبرأ من قوته إلى قوة الله ، وفوض إليه الأمر وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال

والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحا أجرد مستويا .

قالَ :﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾

وبذلك تنتهى هذه الحلقة من سيرة ذى القرنين . النموذج الطيب للحاكم الصالح ، يمكنه الله فى الأرض ، وييسر له الأسباب ؛ فيجتاح الأرض شرقا وغربا ؛ ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ، ولا يطغى ولا يتبطر ، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادى ، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ؛ ولا يسخر أهلها فى أغراضه وأطماعه . . إنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل ؛ ويستخدم القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح ، ودفع العدوان وإحقاق الحق . ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله ، ولا ينسى وهو فى إبان سطوته قدرة الله وجبروته ، وأنه راجع إلى الله .

وبعد فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ؟!

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد فى القرآن ، وفى بعض الأثر الصحيح .

والقرآن يذكر فى هذا الموضوع ما حكاه من قول ذى القرنين : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ .

وهذا النص لا يحدد زمانا . ووعد الله بمعنى وعده بدك السد ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار ، وانساحوا فى الأرض ، ودمروا الممالك تدميرا .

وفى موضع آخر فى سورة الأنبياء : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ . . . ﴾ .

وهذا النص كذلك لايحدد زمانا معينا لخروج يأجوج ومأجوج فاقتراب الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول - ﷺ - فجاء فى القرآن : ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ والزمان فى الحساب الإلهى غيره فى حساب البشر . فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون ، ويراها البشر طويلة مديدة ، وهى عند الله ومضة قصيرة .

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فتح فى الفترة ما بين : ﴿اقتربت الساعة﴾ ويومنا هذا . وتكون غارات المغول والتتار التى اجتاحت الشرق هى انسياح يأجوج ومأجوج .

وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثورى عن عروة ، عن زينب بنت جحش - زوج النبى ﷺ - قالت : استيقظ الرسول - ﷺ - من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول «ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج

مثل هذا» وحلق (بإصبعيه السبابة والإبهام) . قلت : يارسول الله أنهلك وفنيا الصالحون ؟ قال : «**نعم إذا كثر الخبث**» .

وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن . وقد وقعت غارات التتار بعدها ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو فى خلافة المستعصم آخر ملوك العباسيين . وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول - ﷺ - وعلم ذلك عند الله وكل ما نقوله ترجيح لا يقين .

انتهى تأويل صاحب الظلال .

ولقد أضاف محمد أسد فى «رسالة القرآن» معنيين جديدين نجملهما فيما يلى :

- أن قرنى «ذى القرنين» يشيران إلى القوة الروحية والى القوة المادية وتكاملهما فى شخصيته .

- أن يأجوج ومأجوج ليستا بالضرورة قبائل بشرية تسكن بقاعا بعينها ، وإنما هى إشارة رمزية إلى سلسلة من الكوارث البيئية والاجتماعية تتوالى بعضها فى إثر بعض منذرة بتدمير كل ما أنجزته البشرية على وجه الأرض . . وحينئذ يموج الناس بعضهم فى بعض وينفخ فى الصور فيجمعهم ربهم فى يوم القيامة جمعا .

رحم الله محمد أسد .

ولنبدأ من حيث بدأنا حديثنا من قبل : حاكم مسلم آتاه الله القوة الروحية والقوة المادية متكاملتين فى شخصيته ، ومكن له فى الأرض وآتاه علم الوسائل التى يتخذها لتحقيق أهدافه

العظيمة ، ووفقه الله فى اتباع هذه الوسائل ومنحه الهمة الحضارية ليضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ليحفظ النظام فى العالم والذى تتقاسمه أحوال ثلاثة :

الحالة الاولى: ◆

حضارة تغرب شمس قيمها حيث يطغى تمدينها المادى على القيم الروحية فيها فتتكدر عين الحياة فيها فتصبح عينا حمئة . . . يطغى طينها الأسود على مائها .

فى مثل هذه الظروف التى تختفى فيها القيم الروحية ويطغى فيها الطين على النفوس وتتوحش القوى المادية فى القلوب فتصبح قلوبا قاسية . . . فى مثل هذه الظروف يشيع الظلم بين الناس ويحتاجون إلى من يعيد الناس إلى ظلال القيم رهبا ورغبا .

رهبا : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ .

ورغبا : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ .

هل نقول أن كثيرا من دول الغرب تعيش هذه الحالة . . . حيث تغرب شمس القيم الروحية وتستبدل بقيم مادية تقوم على فكرة المصلحة والتى تعنى الوفرة المادية واللذات الحسية . وفى الصراع من أجل هذه الوفرة المادية واللذات الحسية يستباح الظلم عند توفر القدرة عليه . . . أى لا يمنعهم من الظلم إلا عجزهم عنه . . . ولكنهم متى قدروا عليه فإنهم يظلمون .

حضارة فى مرحلة الميلاد عندما تتمثل هذه الحضارة فى مجموعة من القيم الروحية تملأ نفوسا كبارا يتحركون على الأرض بهذه القيم ... بها يأكلون وبها يتنفسون وبها يتعاونون ..

إنهم فى فجر حضارتهم حيث تبزغ شمس قيمهم «وتطلع» عليهم رويدا رويدا .. ليس لهم من دونها سترا .. ولا تحجبهم عنها غيوم المادة وثقل الطين .. ربانيون وقيميون ..

فما يفعل ذو القرنين مع هؤلاء ؟ ... إنهم فى أحسن حالات البشرية ... إنهم يعيشون اللحظات القليلة والومضات الخاطفة فى ساعات الفجر عندما تتفتق الحياة عن حضارة جديدة ... كذلك وجدهم وكذلك تركهم وهم فى قمة الخير المرجو لأى جماعة بشرية تعيش على الأرض ، وهم فى طريقهم لبناء مجتمعهم يحتاجون لخبرات مادية متراكمة فى الوعاء الإنسانى مما اخترعه الإنسان فى الحضارات الأخرى .

﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ .. أى أن الله أحاط بما لدى ذى القرنين من تأملات ورغبات وقدرات يستطيع أن يساعد بها هذه الجماعة التى انبلج عنها ضياء فجر جديد .

ونحسب أن مجتمع المدينة محمد رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه كانوا يمثلون هذه الحالة فى أنقى صورها .. مجتمع فى قمة نقائه الروحى يعيش بقيمه العظيمة فى ظل تمدين العرب السائد فى هذه الفترة .

والحالة الثالثة :

حالة بين هذين الجبلين . . . فلا هى حالة حضارة بلغت الأوج فى عالم المادة وطغى تمدينها على قيمها الروحية ولا هى حالة حضارة فى مرحلة الذروة الروحية فى ساعات فجرها ولم تحقق فى عالم المادة شيئا كثيرا بعد ، إنما هى حالة تنشأ عن عدم القدرة أن ترتبط القيم الروحية بالأحوال المادية والاجتماعية . . أو قل إنها حالة انفصام بين الأشواق الروحية والسلوكيات الحياتية ، هذا الانفصام النكد الذى يمثل ثغرة حضارية تخرج منها كل يوم كوارث اجتماعية وبيئية يتوالى بعضها فى إثر بعض منذرة بهلاك المجتمع ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ .

ويميز هذه الحالة الثالثة غياب الفقه على مستوى الأفراد والجماعات والدولة ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ .

ولن ينفع الناس للخروج من هذه الحالة وسد هذه الثغرة إلا أن يغيروا ما بأنفسهم ويستجمعوا قوتهم الروحية والمادية ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ وينسجوا بقوة بين قيمهم وحياتهم فتصبح الحياة قيما تمشى على الأرض أو قل يلحموا بلحام قوى متين بين عالم الروح وعالم المادة ، ولعل الحديد والقطر والنار يمثلون عالم المادة بينما يمثل النفخ عالم الروح ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ (أى جانبى الجبلين المتقابلين) ﴿ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا

اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ . . . ذلك أن هذا التلاحم بين عالم القيم وعالم المادة وقيام الحضارة الراشدة سرعان ما تعتريه عوامل التحلل والهرم فيفقد الناس هذه القمة وينحرفوا إلى رهبانية قاتلة أو إلى مادية جامحة وتنشأ الثغرة من جديد ويحتاج الناس مرة أخرى إلى مصلح مجدد كذى القرنين يأخذ بأيديهم إلى الخروج من هذا الانفصام النكد حيث تعود القيم إلى الحياة وتعود الحياة إلى القيم .

ولعل الأوضاع التى يعيشها المسلمون هذه الأيام هى خير تمثيل لهذه الحالة فهم مؤمنون بقيم الإسلام العظيمة ولكن هناك انفصام واضح بين هذه القيم وبين كثير من السلوكيات الحياتية السائدة ، والإصلاح المطلوب يقوم على منهج ذى القرنين وهو المجاهدة (بقوة) حتى تصبح القيم جزءاً لا يتجزأ من نسيج الحياة . . . ورحم الله أم المؤمنين عائشة عندما سئلت عن خلق المصطفى ﷺ وقالت : «كان خلقه القرآن» .

وبعد فنحن لا نزعم أن هذا الوجه فى الإعجاز هو الوجه الأوحد وإنما هو وجه من الوجوه وهو يتعلق بالدورة الحضارية فى الأمم حيث تابعنا أحوال الحضارة عند غروب شمس قيمها وعند انبثاق فجرها وفى مرحلة ما بين الاثنين . .

وما ذكرناه يمكن أن يعين صاحب الفقه السياسى على طرح جديد للنظام العالمى فى الإسلام ، فهو نظام يخلط السياسة بالاجتماع ويساعد الشعوب التى فقدت عالم قيمها على إقامة

العدل بالضرب على يد الظالمين وتشجيع المحسنين حتى تعود للقيم قوتها وحتى يصبح هؤلاء المحسنون قدوة لبنى جلدتهم .

وهو نظام يعضد البواتق الحضارية فى الشعوب التى تتألق قيمها فى نفوس الناس وفى أعمالهم فهؤلاء على الجادة ولسوف ينمو تمدينهم مع الأيام ليعبر تعبيرا كاملا عن قيمهم ، وإنهم فى حالهم هذا لا يحتاجون إلا إلى التعضيد والمؤازرة وإفساح الطريق إلى تمدينهم وتركهم ينمون فى حرية فى دروب الحياة . وهو نظام يقف مع الشعوب المستضعفة والتى تملك قيما ولكنها تائهة مثل حال المسلمين هذه الأيام ، ولا يقف معها فقط ليساعدها ماديا وإنما يقف معها ليساعدها روحيا ويخترع لها من الوسائل ما يدرأ به عنها عواصف الحياة مادية كانت أو روحية وهو يفعل ذلك بالناس أنفسهم حيث ينظمهم ويستخرج قوتهم ﴿أعينونى بقوة﴾ النفسية والمادية فالنفخ هنا إشارة إلى إطلاق القوى الروحية كما أن الحديد والنار والقطر إشارة إلى القوة المادية . . .

وذو القرنين (أو ما يمثله من قوة إسلامية ممكنة فى الأرض وصاحبة علوم متقدمة تفتح بها أبواب الحياة) يفعل ذلك كرسالة له فى الأرض . . رسالة الرحمة المهداة . . ﴿ذلك رحمة من ربى﴾ ولا يطلب من وراء ذلك إلا تحقيق هذه الرسالة . . . لا يريد خرجا يقهر به عباد الله ، ولا يستأثر بخير دون عباد الله ، ولا يريد علوا فى الأرض ولا فسادا . . . والله أعلم .

***

القرآن كتاب هداية للخلق . . . هداية إلى مرجعية عليا تتعلق بغيب لا يستقيم نظام أخلاقى إلا بوجوده ، وهداية إلى مجموعة من القيم التى تمثل الموازين التى سيزن بها الإنسان أعماله .

والقرآن يؤكد على الأهمية القصوى للإيمان بالغيب حتى يخلص الإنسان لمجموعة القيم القرآنية ، فأى نظام أخلاقى يحتاج إلى جدوى مصاحبة .

فى النظم المادية الغربية تقوم فكرة المصلحة المادية القريبة وراء قيم المجتمع .

فى الإسلام (من لدن آدم حتى اليوم) تقوم فكرة الفلاح فى الدنيا والاخرة وراء عالم القيم ، وفى سبيل تركيز الإيمان بالغيب فى قلب المؤمن يحشد القرآن الكون المحيط فى كل آياته . . . فها هو الكون المعجز من حولك وفى داخلك يحيط بك أيها الإنسان ويا أيها الجان . . . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟

وفى هذا الحشد الرائع للآيات الكونية فى آى الذكر الحكيم يتدثر الإعجاز المذهل . . الذى يصف الكون بألفاظ عربية تستطيع الأجيال المختلفة أن ترى فيها اتساقا لا يتعارض مع علوم عصرها الثابتة ومشاهدات أزمانها الدقيقة فى الكون والإنسان .

ونحن لن نبحث فى القرآن عن العلوم الجديدة وإنما نبحث عن القيم ، وسيتحداه المسلم المعاصر بالعلوم الثابتة والمشاهدات

الدقيقة فى عصره ويسأل هل تتعارض آياته مع هذا العلم الثابت والمشاهدات الدقيقة؟ وسيكون الإعجاز أن الجمل والألفاظ إذا تعرضت لهذه الظواهر فإن هذه الحقائق تعيش مكنونة فيها وتنتظر مؤمن العصر ليكتشفها دليلا جديدا على إعجاز الكتاب المذهل .

وأنا أفعل ذلك كثيرا ، فأنا أود زادا لقلبى عن طريق عقلى فى كثير من الأحيان فأقف مثلا عند قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾

نعم يقرأها المسلم فى القرون الأولى الهجرية فيشعر بأن الأرض الظامئة تهتز طربا وسعادة إذ يأتيها غيثها فتدب فيها الحياه . . . وهو تفسير جميل يقدم لنا صورة فنية شعرية جمالية رائعة . . . ولكن رجلاً مثلى يشتغل بالعلوم والهندسة يبحث عن الإعجاز المكنون فى هذه الصياغة الربانية فيوفقه الله إليه .

الكرة الأرضية جسم ضخم ، وقطرات المطر أجساد مادية صغيرة . قوانين نيوتن تقول أنه إذا اصطدم جسمان ماديان بسرعات مختلفة فإن سرعاتهما بعد الاصطدام تختلفان عن سرعاتهما قبل الاصطدام مع بقاء كمية الحركة ثابتة . (conservation of momentum) . فى حالتنا المطر له سرعة والأرض شبه ثابتة قبل الاصطدام ، وبعد الاصطدام يتحدا وتفقد قطرات المطر سرعتها ، ومن ثم لابد أن تكون للأرض سرعة ناتجة عن الاصطدام . . صحيح أن هذه السرعة متناهية فى الصغر وليست فى اتجاه واحد نتيجة سقوط أمطار هنا وأمطار هناك ، ولكنها سرعة موجودة واهتزاز أكيد .

الأمر هنا أن القرآن لم يأت ليثبت قوانين نيوتن وإنما جاء كتاب هداية لقيم الإسلام ولكن إعجاز اللغة وهو يصف آيات كونية من شأنها أن تهز الاعماق فى قلب الإنسان وتوجهه إلى الله ، هذا الإعجاز يحمل فى طياته أكثر من إعجاز . . . كل إعجاز يظهر فى وقته للذين يتحدونه بعلوم عصرهم الثابتة ومشاهدات الكون الدقيقة .

ويمكن لمؤمن آخر أن يرى أن الآية تتوافق فى إعجاز مذهل مع الحقيقة القائلة بأن دقات قطرات المطر فوق رق منشور تحدث هزات إيقاعية جميلة ، وهل سطح الأرض إلا رق منشور .

تقرأ قوله تعالى : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾

فتشعر بهذا التناغم البيئى بين الإنسان والكون المحيط به ، وتحيط بك روحية تعلو بك فى الآفاق محلقة . . أنت أيها الشادى على قمم الجبال . . تترنم بأنشودات تسبح بها ربك . . معك الجبال تشدو مسبحة بحمد ربها . . لست وحدك . . كل من حولك يشدو معك . . هذا المعنى الروحى المتبتل فى رحاب الله . . قد احتوته كلمات عربيات يمكن تحديها على مقاييس المشاهدة ونتائج العلوم . أن داود عليه السلام إذ يشدو بتسابيحه الرائعة فيسبح معه الهواء المحيط ويحمل هذه التسابيح فى شكل هزات هوائية تضغط على المخلوقات القريبة وفيها الجبال والطير فتهتز فى تناغم مع الشدو وتؤوب مع نبى الله داود . ليس المعنى الثانى هو غاية القرآن وإنما الغاية هو المعنى التعبدى الأول ، ولكن الكلمات الحاملة للمعنى الاول معجزة لكل عصر إذا تحداها مؤمن

مثلى يعلم أن القرآن ليس معجزا فحسب فى تناسقه الداخلى وإنما هو معجز كذلك فى الصياغة اللغوية التى لا يأتيها الباطل من علوم تظهر وحقائق كونية تشهد .

تقرأ قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

فتستحضر الرسالة القرآنية التى تؤكد أن كل حركة فى الكون لابد أن تأخذ هداها من الله تبارك وتعالى .. بعضها يأخذه طوعا وبعضها يأخذه كرها واختيارا وهؤلاء هم الجن والإنس ، وأية محاولة لاستوقاد نار التماسا لنور وضعى وهدى بشرى سوف تذهب أدراج الرياح وسيذهب الله بهذا النور المزيف ويدع الناس فى ظلمات لايبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون .

هذه هى الرسالة القرآنية التى تؤكد ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ .

ولكن يأتى مؤمن مثلى يريد أن يرى الإعجاز فى الكلمات العربية الحاملة لهذا المعنى الكبير فيرى إشارة رائعة لحقيقة كونية ضل عنها البشر كثيرا فى كل الحضارات القديمة حتى أفاء الله على البشرية بسيدنا ابن الهيثم وألهمه الله الطريق فكشف عن الحقيقة التى تقول أننا نرى الأشياء بما ينعكس منها على أعيننا من ضوء ، أى أننا لا نراها لأن الضوء يخرج من أعيننا إليها كما كانت تؤمن كل الحضارات القديمة ولكن ينبغى أن يكون هناك مصدر ضوئى تنعكس أشعته على جسم ما فتسقط هذه الأشعة على أعيننا فنرى هذا الجسم . وفى القرآن كله تستخدم كلمة

ضياء للجسم المضيء وتستخدم كلمة نور للجسم الذى تسقط عليه الأشعة وتنكسر وتنعكس عنه إلى أعيننا :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾

فالشمس جسم مشع والقمر كاسر وعاكس للأشعة . والآية تقول أننا لن ندرك الله بأبصارنا أبدا وإنما سنراه من خلال ما يهدينا إليه فى السموات والأرض . . . فهديه للكون هو الذى نراه من خلال حركة الكون وقوانينه ومنطقه . . ولذلك نرى أن مجرد استخدام كلمة نور فى الآية أوحت لنا بمنهج فلسفى يتعلق بالبحث فى ذات الله الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . إن هذا المنهج الذى يحدد بوضوح كيف نهتدى لمعرفة الله من خلال مخلوقاته هو منهج النظر المعتمد فى الإسلام وهو يرفع عن كاهل العقل الإنسانى الرغبة الدائمة فى دخول مساحات غيبية ليست من اختصاص العقل والدخول فيها مهلك وغير مأمون العواقب .

ومرة أخرى تتدثر رسالة قرآنية عقيدية عظيمة الشأن فى حياة البشرية ، تتدثر فى جملة عربية توحى بقانون طبيعى يصور مجموعة من المشاهدات المستقرة فى علم الضوء . . . الضوء لا ينبعث من عين الإنسان إلى الجسم المرئى وإنما ينعكس على الجسم المرئى من مصدر ضوئى فيدخل عين الإنسان .

ولا أظن أن ابن الهيثم الذى حباه الله وهداه لعمل التجارب الضوئية التى أثبتت هذا القانون كان يبحث فى ذلك الوقت فى تفسير لهذه الآية وإنما أتخذ سبيل العلماء الذين غيروا مجرى

التاريخ باعتماده على منهج تجريبى تعلمه من قرآن ربه :

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ .

تقرأ قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

فترى فى باطن هذه الرسالة القرآنية الجميلة وهذه اللوحة النفسية الرائعة ، ترى إيحاء قرآنيا بأن هناك علاقة وثيقة بين الرياح والأمواج فى البحار وهى علاقة أكيدة فى علوم اليوم ، فالاضطراب الهوائى الملازم للريح العاصف يؤثر فى أسطح البحار والمحيطات وينشئ الأمواج . ومرة أخرى رسالة علمية تدثرت فى ثنايا رسالة قرآنية أخلاقية ونفسية .

ولقد رأى كثير من المفسرين المحدثين دقة الألفاظ القرآنية وإعجازها العلمى بما حملت فى باطنها من إشارات مذهلة لعلوم استقرت إنسانيا ومشاهدات كونية أصبحت يقينية .

ولقد أشار الكثيرون الى استخدام القرآن لكلمة معارج وفعلها يعرج لكل رحلات السماء ، ونحن نعلم اليوم أن قوانين الجاذبية تجعل حركة الأجسام حول بعضها البعض حركة معراجية فى

هيئة قطاع ناقص (conic Section) . والقرآن استخدم مرة واحدة كلمة «يصعد» بدلا من يعرج فى الإشارة إلى ضيق التنفس الذى يصيب الإنسان وهو يصعد إلى الطبقات العليا من الهواء حيث يتخلخل الهواء ويقل التنفس ، وهذا ينتج من الصعود إلى المناطق العالية فى الأرض مثل الجبال ، وليس هذا أمر رحلة فضائية وإنما هو صعود فوق سطح الأرض .

وأحب وأنا أحاول أن أحدد منهج النظر فى إعجاز القرآن فى إشارته لحقائق كونية أو تطابقه مع علوم مستقرة ، أحب أن أشير إلى بعض الأمور الهامة .

أولا: إن ما نحن بصدد من إعجاز علمى هو أمر لن تنقضى عجائبه لكل الأجيال

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

وكل جيل سوف يجد من خلال هذا الوعد لونا من الإعجاز يثبت الله به إيمان المؤمنين و يفتح به آفاقا للدعوة بين الباحثين عن الهدى .

ثانيا: أنه كلما استقرت علوم وأصبحت علوما يقينية وكذلك استقرت مشاهدات وأصبحت مشاهدات يقينية فإنه لا يمكن للقرآن (حسب وعد الله) أن يختلف مع هذا اليقين الكونى ... وربما وجدت إشارات لهذه العلوم وهذه المشاهدات مستقرة فى جوف آيات الذكر الحكيم .

ثالثا : لست من أنصار المنهج الذى يحاول أن يستخدم القرآن فى الانتصار لنظرية كونية ضد نظرية أخرى لم يحسمها العلم اليقينى ، لأن رسالة القرآن رسالة أخلاقية واجتماعية وسياسية واقتصادية وليست رسالة فى علوم الكيمياء أو الفيزياء أو الأحياء أو غير ذلك من العلوم التى يحسمها البحث التجريبى والتقدم فى علوم القياسات الدقيقة أو الضخمة ، ولكن كما قلنا تأتى إشارة مختبئة فى ثنايا آية من الذكر الحكيم تظهر للناس مع مرور الوقت فيقف الناس عندها مشدوهين ، فما كان لهذا النبى الأمى ولا لأمته ولا لعصره علم بهذا ولا قدرة على تصوره .

رابعا : أرانى شديد الحرص على تجنب الخوض فى أى نظرية تنبنى على ما جاء فى القرآن من إشارة لبعض الأرقام . ولقد فتن بالرقم ١٩ أحد العلماء المصريين المغتربين فى الولايات المتحدة وضل ضلالا بعيدا . ولقد وقف الفخر الرازى عند قوله تعالى :

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾

وهى كما نرى وصف لجهنم والعياذ بالله . ولكنه رحمه الله ظن - وأحسبه محقا - أن هذه التسعة عشر هى أبواب يمكن أن يدخل منها الإنسان إلى جهنم ، وهى أبواب متعلقة بكينونته كنفس وعقل وجسد ، وهى تشمل الحواس والتفكير والعواطف والانفعالات ، وقال أن أرباب الحكم يعدون هذا بتسعة عشر بابا يفد الإنسان من خلالها إلى جهنم .

ونضيف إلى ماقاله الرازى أن الإنسان لا يدخل جهنم بطريقة

أوتوماتيكية من خلال هذه الأبواب ، ولكنه يصل من خلال هذه الأبواب إلى حراس هذه الأبواب من الملائكة وهم يعملون بأمر الله . . فالواصل إلى جهنم من خلال عمله الذى قاده إلى باب من أبواب جهنم لايدخلها إلا بأمر الله للملك المكلف بهذا الباب . ولعل هذه الإضافة تفسر إشكالية تقع فى النفس عندما يقرأ الإنسان كلام الفخر وأمثاله من ذوى العقول الجبارة . . إذ يظن الإنسان أن أمور الثواب والعقاب مؤتمتة فى كيان الإنسان نفسه وكأن ناره وجنته فى داخله وأن إرادة الله انتهت بخلق هذه الأتمتة فى كيان الإنسان وهو كلام يصادر على رحمة الله فى الدنيا والآخرة وينافى روح هذا الدين .

ونعود إلى قضية الرقم ١٩ فى هذه الآية فنرى أنه رقم يتعلق بالرسالة القرآنية ذاتها . . . إذ ينبغى على الإنسان أن يعرف الأبواب النفسية والحركية والاجتماعية التى يمكن أن تؤدى به إلى جهنم .

صحيح أن بعض الأرقام التى جاءت اشارة عنها فى القرآن تغرى العالم بوقف ولكن ينبغى التحرز من مواقف الأقدام حتى لا تزل .

ومن هذه المواقف ما أحتار فيه الأخ محمد دودح عند توقفه عند قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧]

أو قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : ٥]

فينقل د/ دودح تفاسير كثيرة منها تفسير ابن عباس الذى يقول : «لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة فى يوم من أيامكم» أى أن سرعة الأمر تحسب كالآتى : -

المسافة التى يقطعها القمر فى ألف سنة مقسومة على يوم واحد . فلما حسبها دودح بالمسافة الملحوظة الآن :

$$\frac{\text{مدار القمر فى الشهر} \times \text{١٢شهرا} \times \text{١٠٠٠ سنة}}{\text{٢٤ساعة} \times \text{٦٠ دقيقة} \times \text{٦٠ ثانية}}$$

$$= \frac{\text{٢١٦٠٠٠} \times \text{١٢} \times \text{١٠٠٠}}{\text{٢٤} \times \text{٦٠} \times \text{٦٠}} = \text{٣٠٠٠٠٠ كم/ثانية}$$

وهى السرعة التقريبية للضوء فى الفراغ .

ولا يهدأ صاحبنا دودح ولا يقنع بهذه النتيجة بعد أن علم أنها ليست بالضبط سرعة الضوء وإنما هى قيمة تقريبية فيبدأ فى التأويل ويظن أن كلمة «مما تعدون» إنما هى إشارة للنظام الفلكى الذى كان يظنه العرب من سكون الأرض ودوران الشمس حولها ويبحث مجتهدا عن قيمة مدار القمر فى هذا النظام ويدله بعض الصالحين على بعض الطرق التى يحسب بها هذا المدار حيث يزعم أنه حسبه فوجده ٢١٥٢٦١٢,٢٧١ كم .

ومن ثم تصبح السرعة الكونية :-

$$\frac{\text{٢١٥٢٦١٢,٢٧١} \times \text{١٠٠٠}}{\text{٢٤} \times \text{٦٠} \times \text{٦٠}} = \text{٢٩٩٧٩٢,٤٥٨كم/ث}$$

وهى القيمة المعروفة اليوم لسرعة الضوء . ما الذى يمكن استنباطه من هذا التفسير ؟ .

حقيقة أقف مذهولا أمام الأرقام فتطابق حتى تسعة أرقام أمر رائع ولكن هذه الصدفة الرائعة يجب أن لا تسوقنا إلى تقرير أمور نخشى أن تزل معها أقدامنا .

فأولا أن الأمر الإلهى يأتينا من مكان يبعد عنا مسيرة يوم ضوئى ، فإن فسرنا ذلك أن هذه سرعة الإشارات «الكونية» (وليس «الإلهية» لأن الله يقول للشيء كن فيكون) فربما يكون ذلك مقبولا .

وربما يحسن بالمفسر العلمى (وهو هنا صديقنا الدكتور دودح) أن يقول لقد أمسكت بآلتى الحاسبة وأخذت تفسير ابن عباس ووضعت الأرقام فيه فجاءت كما ترون متطابقة مع سرعة الضوء للرقم التاسع ولا أدرى إن كانت هذه إشارة إلى سرعة الانتقال الإشارى بالضوء أو سرعة شيء آخر نجهله والعلم عند الله . لو قال هذا وتوقف فسيكون متبعا نهج السلف الصالح من المفسرين الذين يذكرون الرأى ويتبعونه بالكلمة العظيمة : والله أعلم .

وأقول أنا كذلك والله أعلم .

خامسا : تقرأ فى القرآن أن الله تبارك وتعالى هو الذى يرسل السحاب وهو الذى ينزل الغيث وأنه يمسك السماء والأرض حتى لا تقع وأنه يمسك الطير فى السماء ، ونحن نفهم من ذلك أن الله هو خالق السنن التى تجرى بها كل هذه الأمور وهو الذى يطلق إشارات بدئها فى أى وقت شاء فى أى مكان أراد ويستطيع سبحانه وتعالى أن يعطل هذه السنن أو ينسخ آيات ويستبدلها بآيات جديدة . . لا راد لإرادته . فنحن نعيش فى كونه الذى خلق ، ونسجد له قهرا بالاستجابة لهذه السنن الكونية التى لا نملك فكاكا منها . . .

فأمن هذا الذى يملك أن يقهر الجاذبية الأرضية وقوانين الحرارة والضوء والكهرباء والمغناطيسية ؟

سادساً: إننا يجب أن نفرق بين الظواهر المشاهدة فى الكون وبين القوانين التى استنتجناها وظننا أنها قوانين كونية عامة . والقرآن يتعرض للظواهر الكونية ولا يتحدث عن القوانين التحتية التى يمكن بها تفسير هذه الظواهر . إن هذه القوانين - مثل قوانين نيوتن- هى قوانين تستطيع أن تفسر بعض الحقائق المشاهدة ولكننا تعلمنا فى هذا القرآن أن كل قانون نظنه جامعا مانعا إنما هو تقريب لقانون أعم يحتويه فى داخله . فمن كان يظن من قبل أن الوقت والمسافة متصلتان من خلال قوانين النسبية الخاصة؟ . .

ومن كان يظن أن للضوء طبيعتين متناقضتين؟ . . بل إن هاتين الطبيعتين المتناقضتين تصبغان كل الكائنات .

. . . أقصد طبيعة الموجة وطبيعة الجسيم .

أحيانا يقع فى خاطرى وأنا أقرأ قول الله تعالى :﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . . ﴾ أن الإنسان سيعلم أسماء الظواهر كلها ولكنه لن يتعدى ذلك إلى الإحاطة بكنهها . فنحن نعرف الجاذبية ونحن نعرف المغناطيسية ونحن نعرف الكهرباء ولكن هل نعرف كنهها . .؟ نحن فقط نعرفها بآثارها على الكائنات وعلينا . وكلما ظننا أننا أدركنا شيئا من كنهها تجلت علينا بكم من المجاهيل أكبر من ذى قبل ، نخرج من الوصف الخارجى إلى الوصف الجزيئى فإذا بنا أمام ظواهر جديدة لاتحكمها قوانيننا التى نعرفها وإنما تمضى

وفق سنن أخرى . . وكلما أوغلنا جهلنا وتبدت لنا قدرة الخالق المعجزة لنا فى كل دقائق الحياة .

فسبحان الله وعجبا لهذا العبد الآبق . فهل يعجز ربه هربا؟ . . .

سابعا : إننى أحيانا أشعر أن كثيرا من معجزات الأنبياء السابقين وإن كانت فى وقتها إعجازا ما بعده إعجاز إلا أنها تحمل فى طياتها توجيها للإنسانية أن تحاول بالعلم تحقيق هذا الأمر مستقبلا وأقف كثيرا عند قصص نبى الله سليمان عليه السلام مع الطبيعة من حوله والمخلوقات إنسها وجنها وطيرها وكيف أن الله سخر له هذا كله فى تناغم مذهل ، وأشعر أن القرآن يوجهنا أن نجتهد بالعلم لنصل إلى التناغم البيئى الذى نستطيع معه أن نسخر ما حولنا فى قصد واقتصاد . كيف فعل سليمان هذا كله ؟ . . .

كيف فهم منطق الطير؟ وهل منطق الطير هى لغته فحسب أم هو البرنامج التفاعلى للطير مع الكون المحيط به لغة وعادات وغرائز؟ . .

وكيف استطاع سليمان أن يرهف أذنه فيسمع صراخ نملة؟ وكيف استطاع أن يجند فى جيشه هدهدا ذا منطق وبيان ؟ بل كيف يستطيع أحد جنوده أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يأتيه القوم مذعنين ؟ . .

سمعت من أستاذنا الدكتور إبراهيم بدران ، وزميلنا الدكتور بهي الدين صادق عرجون ، أن الرجل الذى عنده ﴿علم من الكتاب﴾ استخدم البث التلفازى والصور المجسمة فى عمله هذا ، وأن سليمان عندما قال ﴿نكروا لها عرشها﴾ . استخدموا فى

ذلك مايسمى اليوم بالحقيقة الوهمية (Virtual reality) ولذلك عندما جاءت سليمان بعد ذلك سألها . أهكذا عرشك؟

ولم يقل أهذا عرشك ؟

وأجابت هى : كأنه هو ولم تقل إنه هو .

كذلك عندما قيل لها ادخلى الصرح . . . والصرح هو بهو القصر . . . حسبته لجة وكشفت عن ساقيها . . فقيل لها : إنه وأهواءنا صرح ممرد من قوارير أى أنه بهو أملس من زجاج وليس تحته ماء حقيقى ، وكأنه شاشة تلفزيونية ملساء صنعت من الزجاج . إن صدق هذا التأويل ، وهو وجه فى قصة سليمان على بعد فإنه يؤكد ما قلناه من أن المعجزه تتعلق بوقت معين ، وقد تمر القرون تلو القرون ويصل الناس بالطريق الإجتهادى العلمى إلى تحقيق هذه المعجزات فلا تصبح حينئذ معجزة بالنسبة لنا فى العصر الحديث ولكنها كذلك فى عصور خلت . والعبرة حينئذ أن القرآن أشار ووجه أنه بالعلم ربما يستطيع الإنسان أن يحقق هذه المعجزة يوما ما .

- وبعد ، فهذا حديث حول منهج النظر فى الإعجاز العلمى المتدثر فى ثنايا آيات القرآن الكريم ، أدعو الله أن أكون قد وفقت فيه سواء السبيل ، وأن لا يكون القلم قد جنحت به الأوهام أو ضل به الفكر ، فنحن هنا فى مجال قدسى ينبغى أن نخلع فيه أرديتنا وأهواءنا وأن نتوجه إلى الله بعملنا كله . . .

أدعو الله أن نكون قد هدينا سبلنا . . . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر . . . ولو شاء لهداكم أجمعين . .

سيد دسوقى حسن

الفهــرس


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨